"بطولات عربية"

من فلسطين

تأليف

عيسى الناعوري
ابراهيم القطان

١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م



عبد الصمد عطوان
اجمع ١٨/٩/١٩ ع

الى كلّ طالب وطالبة

نتحدّث اليكم الآن يا أبناءنا الأعزّاء، لنقُصَّ عليكم أشياء من سِيَر الأبطال والشهداء، ومن أخبار المعارك والبطولات العربية. وقد اخترنا لكم اسماءً وحوادث من زمننا وزمنكم، ووطننا ووطنكم، وممّا نعرفه نحنُ لأننا عشنا فيه، ورأيناه بأعيننا، وأما أنتم فقد كنتم صغاراً حين وقوعه، فلم تفهموه في حينه، ولكنكم بدأتم تَصحُون عليه الآن، وتتساءلون بحيرةِ الأطفال الأبرياء:

— لماذا وقع؟

— وكيف وقع؟

— وما سبب وقوعه؟

فاسمعوا ما نحدّثكم به، واحفظوه جيّداً في قلوبكم للمستقبل القريب، لأنكم ستشتركون في بناء هذا المستقبل القريب، الشبان منكم والفتيات، فيجبُ أن تستفيدوا من تقصيرنا الماضي كمالاً، ومن أخطائنا الماضية صواباً، ومن انحرافات بعضنا الماضية او جُبنهم إخلاصاً وشجاعةً في الوطنية.

لقد بنينا لكم الحاضر، ولكنْ يَظهر أنَّ أيدينَا كانت عاجزة فأسأنا البناء، وانتم ستبنون المستقبل، فاستعدّوا لذلك من اليوم،

الفصل الاول

قضيةُ شعب

هؤلاء اللاجئون المشرَّدون الذين ترونهم في الخيام، وفي الكهوف، وفي الاكواخ، أو حتى في الدور الجميلة، أتظنون أنّهم وصلوا إلى هذه الحالة من المذّلة لأنهم كانوا في بلادهم جبناء، لا يعرفون الوطنية، ولا يحبون أن يدافعوا عن بلادهم؟ كلاّ، بل العكسُ هو الحقيقة، وستعرفون هذا قريباً.

إن بعضكم من هؤلاء اللاجئين، وبعضكم ليسوا منهم. واللاجئون منكم يسمعون من ذويهم كثيراً من القصص والحكايات عن بيوتهم وأراضيهم التي هجروها مُرغَمين، وعن المعارك العنيفة التي خاضوها ضدّ اليهود، وضدّ القوات الانكليزية التي كانت تحكم فلسطين قبل وقوع المأساة، وعن خروجهم من بيوتهم وأراضيهم، وما رافقها من فواجع ومآسٍ مرعبة.

البعض منكم — وهم ابناء اللاجئين — يسمعون كثيراً من هذا، ولعلّهم يتذكرون بأنفسهم أشياء مما وقع، كأنهم رأوه في الحلم، لأنهم كانوا صغاراً حينما وقع. ولعلّ أصوات المدافع والرشاشات والبنادق، التي كانت تنطلق كلّ يوم وكلّ ليلة في الاصطدامات

العديدة بين المجاهدين العرب من جهة، واليهود والجنود الانكليز من جهة أخرى ، لا تزال ترّن في آذانهم، فقد كانوا يطربون على تلك الاصوات ، ويتحـمّسون ببراءة الطفولة حين يسمعونها .

وكثيرون منهم كانوا حينذاك يحفظون جميع أسماء المدافع والاسلحة، لانها كانت تُذكر أمامهم كثيراً ، فكانوا ببساطة الطفولة يجمعون أخشاباً متنـوّعة ، يصـفّونها أمامهم، ويطلقون عليها أسماء تلك الاسلحة التي يعرفونها، ويتحـمّسون كثيراً وهم يعدّونها هكذا : (بْـرِن ـــ سْتِن ـــ تومي جَـنْ ـــ بارودة ـــ فَرد بارا بِـلّلو ـــ مدفع مورتر ـــ مدفع هوتشكِس).

أما المدفع الجبلي فقد كانوا يلفظونه هكذا (مدفع زَبلي) كما يلفظه الاطفال دائما .

كان ذلك كلّـه قبل ثماني سنوات، حين لم يكن أحدٌ من هؤلاء اللاجئين لاجئاً ، ولم يكن هناك شيء اسمه وكالة الغوث ، ولا شيء اسمه لجنة مراقبـــة الهدنة ، ولا حوادث اعتداءات على حدود الوطن ولا تجدُ مَن يقابلُـها ويدفَعُـها بقوّة . بل كان اللاجئون كلّـهم في بيوتهم ، وفي أراضيهم وبياراتهم ، وفي متاجرهم وأعمالهم في قلب وطنهم فلسطين .

فما الذي وقع حتى خرجوا من بيوتهم، وتركوا وراءهم كلَّ ما يملكون، وفقدوا من أبنائهم وآبائهم وإخوانهم وأخواتهم وأمّهاتهم كثيرين وكثيرات جدًّا؟

إسمعوا لنقصّ عليكم أشياء مما وقع. نقصّه عليكم لكي تعرفوا الحقيقة أولاً، ولتمجّدوا بطولات الأبطال المجاهدين ثانياً، ولكي تنقموا على خيانات الأعداء والخونة ثالثاً، وأخيراً لكي تصمّموا من اليوم على أن تكونوا أنتم في المستقبل الجنود الأمناء الذين سيُرجعون الوطن المغصوب إلى أهله، وسيطردون منه العدوّ الغاصب، ويُنقذون الأمة العربية من القوى الاستعمارية التي تمنعُها من الحرية والكرامة.

إذا لم تصمّموا من اليوم على هذا، فلا تنتظروا أن تكونوا في المستقبل جيلاً طيّباً كريماً، ولا تأملوا أن تنشأ منكم أمّةٌ تستحقّ الحياة الحرةَ الكريمة، ولا ترجوا أن ينظر إليكم أي إنسان بشيء من الاحترام.

وشيء هامّ جدًّا نقوله لكم الآن، ونريد أن تحفظوه جيّداً ولا تنسوه أبداً، وهو:

إن ضياع فلسطين وتشرّد أهلها، إنما كان من أهمّ اسبابهما الخلافات والانقسامات، بين الفلسطينيين أنفسهم من جهة، وبين الدول العربية من جهة أُخرى. والخلافات هي دائماً أساس الشرّ، والتعاون والاتحاد هما أساس الكرامة والعزة. فاحذروا من

الانقسامات والخلافات ، وكونوا صفاً واحداً ، يدُ كلّ واحدٍ منكم في يد الآخر ، لأنّ وطنكم واحد ، وأُمتكم واحدة وعدوّكم المشترك واحد وهو إسرائيل التي خلقها الاستعمار ولا يزال يسندها ليهدم كيان أُمّتكم ووطنكم .

فاذا كنتُم صفاً واحداً انتصرتم على عدوّكم بدون شكّ ، وإذا انقسمتم على أنفسكم ، فسينتصر الأعداء عليكم ، كما انتصروا على آبائكم .

احفظوا هذا الدرس جيّداً ، ولا تديروا بالاً الى الذين يدعونكم الى الانقسامات والخلافات باسم الطائفّيات ، او باسم المبادىء السياسية أو المذهبيّة ، إنهم يخدعونكم ، ولا يريدون الخير لكم ولا لوطنكم ولا لأمّتكم . فأهملوا دعواتهم ، وكونوا جنوداً مخلصين لوطنكم ولأمّتكم فقط ، لا يفرّقُ بينكم مذهب ، ولا عقيدة ، ولا حزب ، ولا طائفة .

قضية اللاجئين

والآن نعود بكم إلى الوراء ، ونحدثكم عن قصة هؤلاء اللاجئين من أوّلها ، وعن قصة وطنهم ووطنكم الذي اغتصبه الأعداء وشرّدهم عنه .

كان ذلك قبل ثمان وثلاثين سنة ، أو على الأصحّ منذ سنة ١٩١٨ ، حينما انتهت الحربُ العالمية الأولى ، وكان من سوء حظ هذه البلاد العربية أن ينتصر الانكليز وحُلفاؤهم ، فيحتلَّ الانكليز فلسطين والأردن والعراق — وكانت مصر خاضعة لهم قبل ذلك بزمن طويل أيضاً — ويحتلّ الفرنسيون سوريا ولبنان — وكان المغرب العربي خاضعاً لهم منذ زمن طويل كذلك — وبدلاً من أن يَفيَ الانكليز والفرنسيون بتعهّداتهم التي قطعوها للعرب ، من تدريب المواطنين العرب على حُكم بلادهم بأنفسهم ، راحوا يسيئون إلى هذه البلاد إساءات كثيرة ، ويظلمون أهلها ظلماً شديداً . فكان من نتيجة ذلك أن قامت في جميع البلاد العربية ، الخاضعة للاستعمار البريطاني والفرنسيّ ، ثوراتٌ عديدة ذهب فيها ضحايا كثيرون جدًّا ؛ فالحرية غالية ، وتكلّف طلاّبَها ضحايا كثيرة .

ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يُدني الحقوق ولا يُحقّ
وللحرية الحمراء بابٌ بكل يد مضرجة يُدَقّ

ولن نحدّثكم في هذا الكتاب عن البلاد العربية كلها، ولكننا سنحدّثكم فقط عن فلسطين. وأما سوريا والعراق ومصر والمغرب العربي، وبقية اجزاء الوطن العربي، فقد نحدّثكم عنها في كتب أخرى.

الانكليز في فلسطين

حينما دخلت الجيوش البريطانية فلسطين، وفَرَضَ الانكليز حكمهم عليها، كان عدد اليهود في فلسطين كلّها لا يزيد على ستين ألفاً. ولم يكن لهم قوة، ولا كان لهم أملاك. وكان ظهور عربيٍّ واحد في حي يهوديّ، يجعل الحيَّ اليهوديَّ كله في حالة مضحكة من الخوف والاضطراب. فاليهود بطبيعتهم جبناء اذا لم يجدوا مَن يحميهم، ولكنهم يتنمَّرون حينما يجدون أناساً أقوياء يحمونهم، كما حدث حينما كانت الدول الغربية كلّها تحميهم وتدافع عنهم، ولا تسمح للعرب بمقاومتهم، في هذه السنوات الثماني الأخيرة.

ولكن بريطانيا أرادت أن تسلّم فلسطين إلى أصدقائها اليهود. ولا حاجة إلى أن نبحث في أسباب ذلك، ولهذا فتحت المجال للوكالة اليهودية، التي في يدها زعامة اليهود وقيادتهم، بأن تقوى وتشتدّ؛

وسمحت لليهود في العالم كلّه بأن يهاجروا إلى فلسطين، وفرضت على العرب الفلسطينيين ضرائب كثيرة لا يتحمّلونها، لكي ترغمهم على بيع أراضيهم لليهود المهاجرين. وكانت الحكومة من جهة أخرى تنتزع أحياناً بعض الأراضي الجيّدة من أهلها العرب بالقوة، وتقدّمها هديّة الى اليهود.

ستقولون كلّكم: إن هذا ظُلم! ونحن نقول لكم إنه ظلم شديد، وإنه يخالف كلّ مبادئ العدالة والضمير والانسانية. ولكنّ هذا كان من أبسط أعمال الظلم البريطاني في فلسطين. ونزيد على هذا أن بريطانيا كانت تسمح لليهود باستيراد السلاح من اوروّبا، وتسليح مستعمراتهم وتحصينها؛ ولكنها كانت تفتك بكلّ عربي تجدُ معه خرطوشة ولو فارغة. لقد كانت تفرض السجن الطويل القاسي على العرب، أو تقضي باعدامهم حينما تجد لديهم سلاحاً، مع أنهم يريدون أن يحموا بهذا السلاح أنفسهم من ظلم الانكليز وقسوتهم، ومن أطماع اليهود وعدوانهم. وفي الوقت نفسه كانت الحكومة الانكليزية تعلم بحوادث تهريب السلاح ألى اليهود من أوروبا، مع أن اليهود جماعة معتدون يجيئون من كل أطراف العالم ليغتصبوا فلسطين من أهلها، ويطردوهم منها.

ولكن هل تظنّون أن العرب كانوا يسكتون على هذا الظلم والعدوان ؟

كلاّ ؛ إذا ظننتم هذا فأنتم مخطئون جدًّا ، ولا تعرفون أنّ هؤلاء اللاجئين الذين ترونهم الآن ساكتين على مصائبهم، وراضين بطحين الاحسان المُرّ ، كانوا مناضلين أبطالاً مدةَ ثلاثين سنة ، وأنهم قاموا بعدة ثورات كبيرة ، سالت فيها دماء غزيرة منهم ومن أعدائهم البريطانيين واليهود ، وهُدِمت فيها قرى كثيرة من قُراهم ، وأحرق كثير من بيوتهم ، وسُجن منهم عشراتُ الألوف ، وأعدم منهم مئات ، وكانوا يصبرون على كل عذاب في سبيل حريتهم وكرامتهم ، كما كانوا دائما ثائرين على الظلم ، ناذرين أرواحهم للوطن .

وها نحن نحدّثكم عن أشياء من ثورات هؤلاء الناس، ومن بطولاتهم الرائعة .

لقد ثار الفلسطينيون مرات عديدة، في سنة ١٩٢١ ، وسنة ١٩٢٩ ، وسنة ١٩٣٣ ، ومراتٍ أخرى بين هذه السنين . وكانت ثورتهم الكبرى ، بل أروع ثوراتهم السابقة ، من سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٣٩ . وأخيراً كانت ثورتهم النهائية في أواخر سنة ١٩٤٧ ، وقد تعاونت فيها القوات اليهودية المدرّبة المسلّحة مع دول الغرب

الشّريرة كلّها، ولاسيّما بريطانيا وأميركا، فانتهت الثورة بخروج الفلسطينيين من بلادهم على أسوإ حالة من التشرّد والمذلّة.

ولا تظنّوا أن الفلسطينيين كانوا يثورون ثم يعودون إلى النوم والسكوت؛ كلاّ، فقد كانت حياتهم طوال مدة الحكم الانكليزي الذي استمرّ ثلاثين سنة، كفاحاً مستمراً في ميادين الجهاد الحربي وفي المفاوضات السياسية مع بريطانيا. وكانت بريطانيا تُرسل في كل ثورةٍ لجنةً للتحقيق في أسباب الحوادث، متظاهرةً بأنها لا تعرف سببها، مع أنّها هي التي تخلق السبب بنفسها.

لقد عرفتم شيئاً من الاسباب الاولية، والآن نمضي لنحدّثكم عن بطولات عرب فلسطين، وعن بعض مجاهديهم الابطال الذين ماتوا في سبيل حرية فلسطين.

الفصل الثاني

في ثورة سنة ١٩٢٩

هذه الثورة التي قامت في منتصف شهر آب من سنة ١٩٢٩ كانت تدعى (ثورة البراق)

والبُراق هو اسمٌ يُطلَق على قسم من الجدار الغربي من سور المسجد الأقصى في القدس، ويسمّى أيضاً (حائط المبكى). وكان اليهود المتدينون - قبل أن يخرجهم المناضلون الفلسطينيون ورجالُ الجيش العربي من داخل أسوار القدس - يزورون هذا الحائط القديم جدّاً، ويبكون عنده على خرابِ هيكل سليمان - هيكلِهم المقدّس قبل ألوف السنين - وكانوا يعتبرون هذا الحائط أقدسَ مقامٍ دينيّ عندهم في فلسطين.

وحائط المبكى، أو (البراق) هو جزء من سور المسجد الأقصى، والمسجدُ الأقصى مكان دينيّ اسلامي مقدس، ولكنّ اليهود كانوا يريدون أن يكون هذا الحائط ملكاً لهم، وأن تنتزَعه الحكومة الانكليزيةُ من أيدي العرب والمسلمين لتقدّمه هدية لهم، كبقية هداياها لهم في أرض فلسطين. غير أنّ هذا الطلبَ لم يكن ممكناً تحقيقه، لأن في تحقيقه إثارةً لشعور العالم الاسلاميّ كله

وفي ١٤ آب جرت في تل ابيب – وهي عاصمةُ اليهود واكبر مدينة لهم في فلسطين – مظاهراتٌ يهودية كبيرةٌ ، كان اليهودُ يهتفون فيها بأن البراق يجبُ أن يكون لليهود . وفي اليوم الثاني جاءت الى القدس جماعات كبيرة من شبان تل ابيب . واشتركوا مع يهود القدس في مظاهرة كبيرة ، ساروا فيها الى المبكى يحملون الأعلام اليهوديّة ، ويُنشدون النشيد الوطني اليهودي الذي يسمّونه (الهاتيكفا) ، وصار خطباؤهم يخطبون فيهم ، ويحمّسونهم لاغتصاب حائط المبكى من العرب والمسلمين .

ولقد كان من الطبيعي جدّاً أن يثور العرب لهذا التحدّي الوقح ، وأن يخرجوا في اليوم التالي في مظاهرات كبيرة هائجة ، احتجاجاً على وقاحة اليهود .

ولكنّ الأمر لم يقف عند حدود المظاهرات ، بل بدأت حوادثُ الاعتداء في القدس في ١٧ آب ، وتبعتها حوادثُ أخرى في جميع أنحاء فلسطين ، استمرّت حتى ٢٩ آب . وفي هذه الحوادث الدامية بلغ عددُ القتلى من اليهود ١٣٣ ، ومن العرب ١١٦ ، وعدد الجرحى من اليهود ٣٣٩ ، ومن العرب ٢٣٢ .

وهؤلاء القتلى والجرحى العرب لم يسقطوا كلّهم نتيجة لقوة اليهود ، فاليهود ، كما قلنا سابقاً ، جبناء يهرُبون من وجه العرب

عند اللقاء ، ولكن الذين قتلوهم أو أصابوهم بالجراح كانوا من رجال البوليس والجنود الانكليز المدافعين عن اليهود .

أما أعنف الحوادث التي فَتَكَ فيها العربُ باليهود ، فقد كانت في مدينة الخليل ، وفي مدينة صفد .

إن مدينة الخليل الآن ليس فيها يهود ، ولم يكن فيها أيُّ يهوديّ منذ سنة ١٩٣٠ الى اليوم ١٩٥٩م

لقد كان في الخليل قبل ذلك عددٌ قليل من اليهود ، كما كان في بقية مدن فلسطين يهودٌ كذلك . ولكنْ في ثورة سنة ١٩٢٩ قام عربُ الخليل على اليهود وفتكوا بهم فتكاً شديداً ، وأوقعوا فيهم مذبحةً هائلةً قتلوا فيها ستّين يهوديّاً ، وجرحوا أكثر من خمسين .

ومن ذلك التاريخ لم يعد يسكن في مدينة الخليل أيُّ يهوديّ .

ولولا قوّاتُ الحكومة الانكليزية التي كانت دائماً تحمي اليهود ، لوَقَعَ مثلُ هذا أيضاً في فلسطين كلها ، ولاستراحت فلسطين من شرّهم قبل أن يكثر عددُهم ويُصبحوا مسلّحين ومدرّبين ، فيطردوا بمساعدة الانكليز والأميركيين عربَ فلسطين من بلادهم .

وقبل أن نستمرّ في الحديث ، نوَدُّ أن نقول إن القتلَ عملٌ إجراميٌّ وحشيٌّ اذا كان لمجرّد الرغبة في القتل ، أمّا إذا كان القتلُ دفاعاً عن النفس ، أو دفاعاً عن الوطن ضدّ الظالمين والمعتدين

فهو واجبٌ وفضيلة تتطلبُهما العدالة، ويقضي بهما الضميرُ الانسانيّ.

ولهــذا كان الفلسطينيون يثورون، ويقتلونَ اليهودَ والجنودَ البريطانيين، لأنهم كانوا يريدون أن يعيشوا أحراراً في بلادهم.

بعد هذا نعودُ لنكملَ حديثَ الثورة. ونحنُ نعلم أنكم قد احببتم هذا الحديث، لأنه ينفسُ عن صدوركم الصغيرة المملوءة بحبّ بلادكم العربية، وأمّتكم العربية، ويجعلكم تشعرون بأنّ أهل فلسطين لم يصبحوا لاجئين إلاّ بعد أن بذلوا كثيراً، وجاهدوا كثيراً. وقدّموا لأجل الحرية ألوف الضحايا. بل عشرات الألوف.

وكما قامت مذبحةُ الخليل، كذلك قامت مذبحةٌ اخرى، أصغر منها قليلاً، في صفد، التي تقع في شمالي فلسطين، بالقرب من الحدود السورية واللبنانية؛ وكان عدد القتلى والجرحى فيها من اليهود نحو ٤٥، وأحرق كثيرٌ من دورهم ودكاكينهم.

ولسنا نعرف تماماً عدد اليهود الآخرين الذين قُتلوا وجُرحوا في كل قسم من بقية أقسام فلسطين؛ ولكننا نعرفُ أن العرب قد عرفوا كيف يؤدبونهم في تلك الثورة على وقاحتهم، ولولا الحكومةُ الانكليزيةُ لقضوا عليهم قضاء نهائياً. غير أن الحكومة قد قَتَلت بسببهم من العرب واعتقلت وسجنت مئات، وأعدمت منهم ثلاثة شهداء أبطال.

الابطال الثلاثة

ومن هم هؤلاء الأبطال الثلاثة ؟ وما هي الأعمال التي قاموا بها ؟ وكيف استقبلوا حكم الاعدام ؟ اننا لنشعر بكثير من السرور حين نحدّثكم عن أبطال الجهاد الفلسطينيّ في مراحله المتعدّدة. وها نحن نقدّمُ لكم هؤلاء الأبطالَ نماذجَ لكي تكونوا في المستقبل أبطالاً مثلهم ، مخلصين لبلادكم العربية . وغيورين على حريتها وكرامتهـا .

الأبطالُ الثلاثةُ الذين أُعدموا في ثورة عام ١٩٢٩ ، هم :

١ ــ فؤاد حجازي ــ من صفد

٢ ــ محمد جَمجوم ــ من الخليل

٣ ــ عطا الزير ــ من الخليل

وقد أُعدِمَ هؤلاء الشبانُ الثلاثةُ في سجن عكاء ، في صباح يوم الثلاثاء الواقع في ١٧ حزيران سنة ١٩٣٠ ، لأن الأول منهم اشترك في مذبحة اليهود في صفد ، التي جرت في ٢٩ آب سنة ١٩٢٩ والاثنين الباقيين اشتركا في مذبحة اليهود الكبرى في الخليل ، وكانو جميعاً من الأبطال الذين أرهبوا اليهود، وأذاقوهم العذاب والمرارة ا ولذلك انتقمت منهم الحكومة الانكليزية إكراماً لخاطر اليهود .

كانوا كلهم من الشبان ، وكان الأول منهم ـ فؤاد حجازي ـ متخرّجاً من مدرسة المطران الانكليزيةفي القدس،يحمل الشهادة الثانوية . وكانوا كلهم محبين لبلادهم غيورين على حرية وطنهم . يكرهون الظلم والاعتداء ، ولذلك قدَّموا أرواحهم فدى لوطنهم ولأمتهم .

ولقد حدَّدت الحكومةُ صباح يوم الثلاثاء في ١٧ حزيران موعداً لاعدامهم ، وذكرت أن في كل ساعة سيُقدم واحدٌ منهم فيُقدم الأولُ ـ فؤاد حجازي ـ في الساعة الثامنة ، والثاني ـ عطا الزير ـ في الساعة التاسعة ، والثالث ـ محمد جمجوم ـ في الساعة العاشرة ، وفي ذلك النهار سُمح للناس بزيارتهم وتوديعهم في داخل السجن ، ولكن هؤلاء الشبان لم يكونوا خائفين من الاعدام بل كانوا كلهم يُنشدون بحماس وشجاعة نشيداً وطنيًّا حماسيًّا ، هذا بعضه :

يا ظلامَ السجنِ خيّمْ   إننا نهوى الظلاما
ليس بعدَ الليلِ إلاّ   فجرُ مجدٍ يتسامى
أيُّهاالحرّاسُ رِفقاً   واسمعوا منّا الكلاما
متّعونا بهواءٍ   مَنْعُه كان حراما

يا رنينَ القَيدِ زدني | نغْمةً تُشجي فؤادي
إنّ في صوتِكَ معنىً | للأسى والاضطهاد
لستُ واللهِ نَسيًّا | ما تُقاسيه بلادي
فاشهدي يا نجمُ أني | ذو وفاءٍ وَوِدادِ

***

إيهِ يا دار الفخار | يا مقرَّ المُخلصينا
قد هبطناكِ شباباً | لا يهابونَ المنونا
وتعاهدنا جميعاً | يومَ أقسمنا اليمينا
لن نخونَ العهد يوماً | واتخذنا الصِدقَ دينا

وحينما جاء الناس لزيارة أولئك الشبّان الابطال وتوديعهم، كانوا يرونهم هادئين، لا أثر للخوف في نفوسهم، بل كانوا هم أنفسهم يشجّعون الناس ويقولون لهم: «نحن فدى الوطن». وقال فؤاد حجازي: « إذا كان إعدامُنا سيُزحزحُ الاعداء عن وطننا، فَلْيمُتْ كلَّ يومٍ مئاتٌ مثلنا، لكي تتحرَّرَ فلسطين من الأعداء!»

أرأيتم، أيها الطلاب، هذه الروح القوية المؤمنة؟

ولكنّ هذا ليس كلّ شيء، فاسمعوا بقيّةَ القصة، فهي كلها بطولة غريبة.

أما فؤاد حجازي فقد طلبَ في الليلة التي سبقت إعدامَه، أن يأخذَه مديرُ السجن ليتفرّجَ على غرفة الاعدام قبل أن يُعدم، فكأنه ذاهبٌ لكي يرى غرفةً مُعدَّةً لحفلة زفافه.

وأما عطا الزير ومحمد جمجوم فقد طلبا حنّاء، وخضبّا به أيديهما، بحسب تقاليد أهل الخليل في الأعراسَ؛ فكأنهما مُقبلان على حفلة عُرسٍ لا إعدام.

وفي صباح اليوم الثاني كانت فلسطين كُلّها في كلّ مدينة، وفي كل قرية، كأنما تشهد إعدامَ هؤلاء الأبطال الثلاثة. وكلّما أعلنت الساعة موعدَ إعدام واحدٍ منهم، كان المؤذنون يؤبّنونه على المآذن، والأجراس تُقرع في قباتِ الكنائس، والصلوات تُتلى على روحه في كل معبد ومسجد.

أمّا هم فقد كانوا يتسابقون إلى المشنقة في داخل السجن. فبعد أن تمَّ إعدام فؤاد في الساعة الثامنة، جاء دور عطا الزير في الساعة التاسعة. غير أن محمد جمجوم زاحمه على الدور، وطلبَ من الحارس أن يَفكَّ قيود الحديد من يديه، لكي يتقدّم إلى المشنقة وهو طليق. فرفض الحارسُ أن يفكّه. فنفضَ جمجوم يديه بغضبٍ وقوّة، فتقطّع الحديد من قوة عضلاته. وعند ذاك تقدّم جمجوم إلى المشنقة وفاز بالدور قبل الزير. ثم تمَّ إعدامُ عطا الزير في الساعة العاشرة.

هكذا تكون البطولةُ ، وعدمُ الخوف من الموت ، والتضحية في سبيل الوطن ! إننا لا نحدّثكم بخرافاتٍ وهميّة ، ولكننا نروي حادثة واقعية ، أبطالها فلسطينيون : وبعضُ آبائكم أو إخوانكم يعرفونهم معرفة حقيقية :

الشعر يخلد البطولة

وبهذه المناسبة يهمكم أن تعرفوا أن شاعر فلسطين المرحوم إبراهيم طوقان قد خلّد هذه الذكرى : ذكرى الشهداء الثلاثة ، وذكرى يوم استشهادهم بقصيدة طويلة عنوانها (الثُلاثاء الحمراء) ، لأن استشهادَهم كان يوم الثلاثاء . وها نحن نكتب لكم تلك القصيدة الجميلة كلها ، ونرجو أن تقرأوها باهتمام كبير حتى تحفظوها ، وتحفظوا مناسبتها ، وتتذكروها دائماً ، وتتذكروا معها الشهداء الأبطالَ الثلاثة ، ضحايا الظلم والعدوان .



إبراهيم طوقان
(الشاعر الذي كان لسان الثورة ، والذي خلد بطولة شهداء «الثلاثاء الحمراء»)

وقبل أن نكتب لكم القصيدة يجب أن نشرح لكم أهدافها، لكي تفهموها جيداً .

لقد جعلها الشاعرُ ثلاثة أقسام : في القسم الأول أراد أن يُفهمنا أن يوم الثلاثاء الذي أُعدم فيه الشهداء الثلاثة كان أشأمَ يوم في تاريخ الانسانية ، وأنه لم يسبقه يومٌ مثلُـهُ في الجور والظلم، لا في عهد محاكم التفتيش الكنسية في القرون الوسطى،ولا في عهد جمال باشا التركي ، الذي كانَ يشنق أحرار العرب في (عاليه) في لبنان ، ولا في أيّ عهد آخر.ثم يبـيّن لنا كيف أن الناس كلَّـهم كانوا يترقّبون أن تَعـدْلَ الحكومة في اللحظة الأخيرة عن حُكمها الظالم، فلا تُعدم اولئك الشبّـان الأبطال ، ولكن قلوب الحكومة البريطانية كانت كالقبور مجرَّدة من الشعور .

وفي القسم الثاني يجعل ساعات الاعدام الثلاث ، تتحدَّث كلٌّ منها ، فتفتخر بالبطل الذي أُعدِمَ فيها . فالأولى تفتخرُ بالبطل فؤاد الذي سَبَق رفيقيه الى الشهادة ، والثانيةُ تفتخرُ بالبطل جمجوم الذي قطع قيوده بقوَّة وسابق زميله على دوره في حبل المشنقة ، والثالثة تفتخر بالبطل عطا الزير ، الذي ظلَّ صابراً الى النهاية ، ولم يَخَفْ من الموت بعد أن رأى زميليه يسبقانه الى الشهادة .

والقسم الثالث يختمه الشاعر بتهديد الطغاة الظالمين ، الذين

يظنّون قوّتهم فوق كلّ قوةٍ في الدنيا، فيريهم أنّ قوة الله والحق هي فوق قوّتهم وجبروتهم. وأن الله يعرف كيف يجازي الظالمين، ويكافيء المظلومين.

والآن بعد هذا الشرح نقدّم القصيدة في ما يلي:

الثلاثاء الحمراء

(القسم الأول)

لمّا تعرَّضَ نجمُكَ المنحوسُ وترنّحت بِعُرى الحبال رؤوسُ
ناحَ الأذانُ وأعولَ الناقوسُ فالليلُ أكدرُ والنهار عَبوسُ
طفقت تثورُ عواصفُ وعواطفُ
والموتَ حيناً طائفُ أو خاطفُ
والمِعوَلُ الأبديُّ يُمعنُ في الثرى ليردَّهم في قلبها المتحجرِ

⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙

يومٌ أطلَّ على العصور الخاليه ودعا: «أمرَّ على الورى أمثاليه؟»
فأجابه يومٌ «أَجلْ أنا راويه لمحاكم التفتيش تلك الباغيه
ولقد شهدتُ عجائبا وغرائبا
لكنَّ فيك مصائبا ونوائبا
لم ألقَ أشباهاً لها في جورها فاسأل سواي، وكم بها من منكرِ»

واذا بيومٍ راسفٍ بقيودهِ فأجابَ والتاريخ بعد شهودهِ:
«انظر الى بيض الرقيق وسودهِ مَن شاء كانوا ملكَـهُ بنقودهِ
بَشرٌ يبـاعُ ويُشترى فتحـــرّرا
ومشى الزمانُ القهقرى فيمـا أرى
فسمعـتُ من مَنعَ الرقيقَ وبيْعهُ نادى على الأحرار (يا مَن يشتري)

⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙

وإذا بيومٍ حـالكِ الجلبـابِ مترنّحٍ من نشوةِ الأوصابِ
فأجاب: «كلاّ» دون ما بكَ ما بي أنافي رُبى «عاليه» ضاع شبابي
وشهدت للسفّـاح ما أبكى دَمـا
ويلٌ لـه مـا أظلما لـــكنّما
لم ألقَ مثلَـك طالعاً في روعةٍ فاذهب لعلّـك أنت يومُ المحشر

⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙⊙

اليومَ تُنـكره الليالي الغابره وتظلُّ ترمقُـه بعينٍ حائره
عجباً لاحكامِ القضاء الجائره فأخـفُّها أمثـالُ ظلم سائره
وطن يسيرُ الى الفناء بلا رجـاء
والداء ليس لـه دواء إلاّ الاباء
إنّ الاباء مَناعةٌ إن تشتملْ نفسٌ عليه، تَمُتْ ولما تُقهرِ

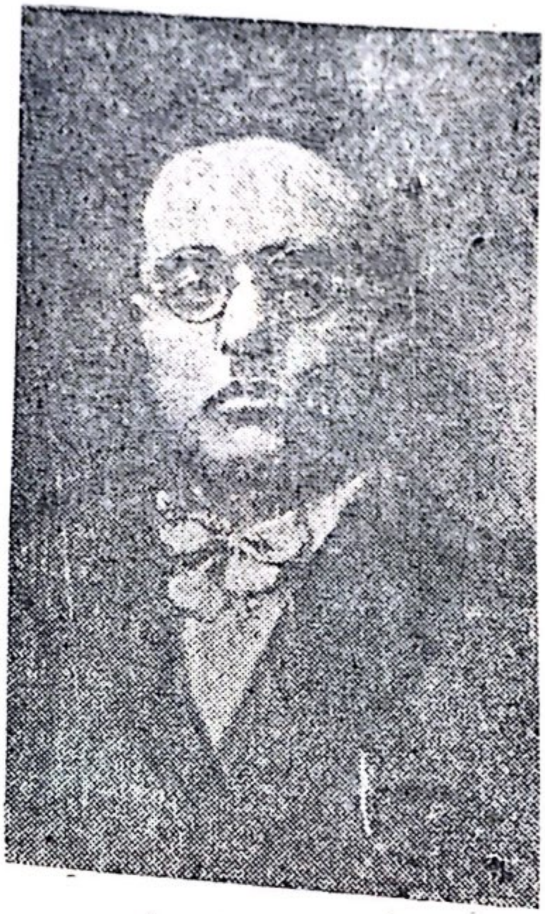
الكلُّ يرجو أن يبكّـرِ عفوُهُ   ندعو له أن لا يُكَـدّ رَ صفـوُهُ
إن كان هذا عطفه وحنوّهُ   عاشت جلالتُـه وعاش سموُّهُ
حملَ البريدُ مفصلا   ما أجملا
هلاّ اكتفيتَ توسُّلا   وتسوُّلا؟
والموتُ في أخذِ الكلام وردّه   فخُـذِ الحياةَ عن الطريق الأقصرِ

ضاقَ البريدُ وما تغيرَ حالُ   والذلُّ بين سطورنا أشكالُ
خسراننا الأرواحُ والأموالُ   وكرامةٌ -يا حسرتا- أسمالُ!
أوَ تبصرون وتسألونْ   ماذا يكون؟
أن الخداعَ له فنون   مثل الجنون
هيهاتَ، فالنفس الذليلةُ لو غدت   مخلوقةً من أعينٍ، لم تُبصـرِ!

أنّى لشاكٍ صوتُه أن يُسمَـعا؟   أنّى لباكٍ دمعُـهُ أن ينفعا؟
صخرٌ أحسَّ رجاءَنا فتصدّعا   وأتى الرجاءُ قلوبَهم فتقَطّعا
لا تعجبوا، فمن الصخورْ   نبعٌ يفورْ
ولهم قلوبٌ كالقبورْ   بلا شعورْ
لا تلتمسْ أبداً رجاءً عندَ من   جرّبتَه فوجدتَه لم يَشعرِ

الشهيد فؤاد حجازي

الساعة الأولى



الشهيد الاول فؤاد حجازي

(الساعة الأولى تفاخر بالشهيد فؤاد حجازي الذي أعدم فيها قبل رفيقيه ، فسبقهما الى مجد الشهادة ، وقدم نفسه فدى لقضية بلاده) :

أنا ساعة النفس الأبيّة ... الفضلُ لي في الأسبقيّة
انا بِكرُ ساعاتٍ ثلاث ... كلّها رمزُ الحميّه
بنتُ (القضيّة إن لي ... أثراً جليلاً في القضيّه
أَودعتُ في مُهَجِ الشبيبة ... نفحةَ الروح الوفيّه

لا بُدَّ من يـــومٍ لهم يسقي الـعدى كأسَ المنيَّـه
قَسماً بروح (فؤادَ) تَصـْعَدُ من جوانحه زَكـــيَّـه
تأتـــي السماءَ حفيّـــةً فتحـــلُّ جنّتها العلـيَّه
ما نـالَ مرتبـــةَ الخـلودِ بغـــيرِ تضحيةٍ رضيَّـه
عاشت نفوسٌ في سبيل بـــلادِهـا ذهبت ضحيَّـه

الساعة الثانية

الشهيد محمد جمجوم



الشهيد الثاني محمد جمجوم الذي
حطم قيوده واستعجل الشهادة

(الساعة الثانية تفاخر بشهيدها جمجوم الذي لم يصبر على دوره ، بل قطع قيوده الحديدية ، وسابق زميله على الدور الثاني ، ففاز به ، وفاز بالشهادة قبله) :

أنا ساعةُ الرجل العتيدِ أنا ساعة البأسِ الشديدَ
أنا ساعة الموت المشرِّف كلَّ ذي فعلٍ مجيدِ
بطَلي يحطِّـمُ قَيدَه رمزاً لتحطيم القيودِ

زاحمتُ مَنْ قَبلي لأسبقها إلى شرفِ الخلودِ
وَقَدَحتُ في مُهجِ الشبابِ	شرارةَ العزمِ الوطيدِ
هيهاتَ يُخدَعُ بالوعودِ	وأن يُخدَّرَ بالعهودِ
قَسماً بروحِ (محمدٍ)	تلقى الردى حلوَ الورودِ
قَسماً بأمك عند موتك	وهي تهتفُ بالنشيدِ
وترى العزاء عن ابنها	في صيتهِ الحسنِ البعيدِ
مانالَ مَن خدمَ البلادَ	أجلَّ من أجرِ الشهيدِ

الشهيد عطا الزير

الساعة الثالثة (١)

(الساعة الثالثة تفاخر بشهيدها الصبور عطا الزير ، الذي رأى إعدام رفيقيه قبله ، وظل مع ذلك ثابت القلب ، لم يخف من الموت ، لأنه رأى الموت في سبيل الوطن مجداً عظيماً) :

أنا ساعة الرجلِ الصبورِ	أنا ساعةُ القلبِ الكبيرِ
رمزُ الثبات إلى النهايةِ	في الخطيرِ من الأمورِ
بَطَلي أشدُّ على لقاءِ	الموتِ من صُمِّ الصخورِ
جذلانَ يرتقب الردى	فاعجب لموتٍ في سرورِ
يَلقى الإلٰه مخضَّب الكفَّين في يومِ النشورِ
صبرُ الشبابِ على المصابِ	وديعتي ملءَ الصدورِ
أنذرتُ أعداءَ البلادِ	بشرِّ يومٍ مستطيرِ

(١) لم نتمكن من العثور على صورة الشهيد عطا الزير لننشرها هنا .

قَسَماً بروحكَ يا (عطاءُ) وجنّةِ الملكِ القديرِ
وصغارِكَ الأشبالِ تبكي الليثَ بالدمعِ الغزيرِ
ما أنقذَ الوطنَ المفدَّى غيرُ صبّارٍ جَسورِ

(القسم الثالث)

الابطال الثلاثة

أجسادُهم في تُربةِ الأوطانِ أرواحُهم في جنةِ الرضوانِ
وهناكَ فيضُ العفوِ والغفرانِ وهناكَ لاشكوى من الطغيانِ
لا تَرْجُ عفواً من سواهْ هو الالٰهْ
وهو الذي ملكت يداهْ كلَّ جاهْ
جَبَروتُه فوقَ الذين يَغُرُّهم جَبَروتُهم في بَرِّهم والأبحرِ

أيّها الطلاّبُ النجباء! مجِّدوا ذكرى الأبطال الثلاثة، واحفروها على صفحات قلوبكم، ليكون للوطن منكم في الغد القريب أبطالٌ مثلهم.

الفصل الثالث

الثورة الكبرى
(١٩٣٦ — ١٩٣٩)

سننتقل الآن إلى مشهد آخر من المشاهد الدامية. ولكنه مشهدٌ طويل، اطولُ من السابق كثيراً، لأن الثورةَ السابقةَ لم تستمرَّ أكثر من خمسة عشر يوماً، وضحاياها لم يصلوا إلى الألف. أما المشهدُ الجديد فقد استمرّ ثلاثَ سنوات، وكانت ضحاياهُ في الارواح والاموال والممتلكات أكثرَ من أن تُحصى أو تُقدَّر. وَبلغَ عددُ الذين اعتقلوا فيه وسُجِنوا ألوفاً عديدة. وأزال الانكليز فيه عشرات من القرى العربية المجاهدة.

هذا المشهدُ الذي سنتحدّث عنه الآن هو الثورة الفلسطينية الكبرى، التي بدأت في منتصف شهر نيسان سنة ١٩٣٦، وانتهت في سنة ١٩٣٩، وكانت مدةُ الاضراب الذي رافقها في البداية ستةَ أشهر كاملة أو تزيد قليلاً.

تصوّروا بلداً مثل فلسطين، كان عددُ سكانه العرب في ذلك الحين يزيد على ٨٠٠,٠٠٠ نسمة، تعطّل فيه الأعمال كلّها، وتقفُ فيه المواصلاتُ والاعمالُ التجاريةُ، وكلّ شيءٍ عدا أعمالَ الجهاد

والمعاركَ الرهيبةَ التي كانت تقعُ بلا انقطاعٍ على جميع الطرق، وفي جميع جهات فلسطين. وكان العرب يقفون وحدهم، وبسلاحهم القليل، ضدّ ٣٥،٠٠٠ جندي بريطانيّ، لديهم الأسلحة الثقيلة المتنوّعة، والدبابات، والمصفحات، والطائرات، والمدافع الجبليّة؛ وبجانبهم أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ يهودي كانوا حينذاك في فلسطين.

متى عرفنا هذا كلّه وعرفنا أن العرب في فلسطين لم تكن لهم أيةُ حكومة تقدّم لهم السلاح، بل كانوا يشترونه بأموالهم الخاصّة، وبعضُهم يبيعون أرَضهم، أو حيواناتهم، أو فراشهم، أو مؤونة بيوتهم لكي يشتروه، ومتى علمنا أنّه لم يكن لديهم مدافعُ ثقيلةٌ، ولا دبابات ولا طائرات، ولا مصفحات، متى علمنا هذا كلّه أمكننا أنْ نتصوّر كيف تكون بطولةُ الشعب المؤمنِ بحقه، والمناضل لأجل حرّيته.

ولزيادة المعرفة، وزيادة الاعجاب كذلك بهذه البطولة، نذكر أنّ أغلبَ المعارك الكبرى التي كانت تدور بين المجاهدين العرب والجيوش البريطانية، لم يكن عددُ المجاهدين فيها يَصلُ إلى عُشرِ عدد الجنود البريطانيين، ومع ذلك، ومع قلّة سلاحِ المجاهدين، وقوةِ سلاح الجنود الانكليز، كان المجاهدون ينتصرون في أغلب المعارك.

سنتحدث عن هذه المعارك كثيراً في الصفحات القادمة، ولكننا نذكر أولاً لماذا بدأت هذه الثورة، وكيف بدأت.

براميل السلاح

كان المهاجرون اليهودُ يجيئون الى فلسطين، من جميع انحاء العالم، بدُفعاتٍ كبيرة متلاحقة، كما ذكرنا سابقاً، وكانت الحكومةُ الانكليزية تحميهم وتشجّعُهم، وكانت تحرم العرب الفلسطينيين من بعض أراضيهم، أو ترغمهم على بيعها، وتُقدِّمُها لليهود. فكان عددُ اليهود يكبرُ بسرعة، وقوّتهم تتزايد يوماً عن يوم، ومستعمراتهم وقُراهم تنتشر بكثرةٍ في أراضي فلسطين، وخطَرُهم يتسّع ويزداد.

ولم يكتفوا بهذا، بل كانوا يستورِدون الأسلحة من أوروبا في براميل يَزْعُمون أنّها ملأى بالاسفلت وغيره، ثم يسلّحون بها أنفسهم ومستعمراتهم، لكي يهاجموا بها العرب، ويرغمونهم على تسليم البلاد لهم فيما بعد.

وحدث في تشرين الأول سنة ١٩٣٤ أن جاءت شحنةٌ من هذه البراميل المزيّفة لليهود بطريق ميناء يافا. ولم يكن في ذلك الحين ميناء في تل أبيب، ولذلك كانت كلّ بضائعهم تنزل في ميناء يافا العربية. وكان البحّارة كلّهم من العرب، وكانوا رجالاً أقوياء. فلما بدأوا يفرّغون شحنة البراميل من السفينة، وقع أحدُ البراميل

على الأرض فتحطم، وظهر أن الذي في داخله لم يكن أسفلتاً، ولكنه كان سلاحاً مهرّباً لليهود.

نحن نعلم أن كل من يقرأ هذا ستثور نفسه، فيلعن هؤلاء المهرّبين الأنذال الخادعين، ويلعن كذلك الذين يحمونهم ويشجّعونهم على النذالة. هذا شعور طبيعي. ولكن هل ضحك عرب فلسطين حينما اكتشفوا هذا الأمر؟!

كلاّ لقد غضبوا كلّهم، وثار الدمُ في عروقهم كثيراً. وقد احتجّوا الى الحكومة احتجاجات كثيرة شديدة، ولكنّ الحكومة كانت دائماً مع اليهود عليهم، ولذلك ظلّت تَعد وتماطلُ، حتى انفجر البركان في نفوس العرب، فتألفت أولُ فرقةٍ للجهاد في القسم الشمالي من فلسطين، وكان يقودُها شيخٌ وطنيّ جليل اسمه (الشيخ عزّ الدين القسّام) وكان ظهورُها في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٤، أي بعد اكتشاف براميل السلاح بشهرٍ واحد، وجعلت مركزها في جبال جنين.

ولكنّ هذه الفرقة المجاهدة لم تتمكن من العمل الكثير، فقد تجسّس عليها بعضُ الخوَنَة فطاردَتْها الحكومة وتمكنت من القضاء عليها.

الشيخ عز الدين القسام

لقد كان الشيخ عز الدين القسّام من المجاهدين العرب السوريين المعروفين ، وكان قد لجأ إلى فلسطين ، وأقام في مدينة حيفا الجميلة ، وتولّى رئاسة جمعية الشبان المسلمين فيها . فلما كانت حادثة البراميل التي تحدّثناعنها الآن رأى الشيخُ أن مصير فلسطين أصبح مهدّداً إذا سكتَ العربُ على هذا التحدّي والعدوان ، لا سيما والحكومة الانكليزية لاتعمل شيئاً لتأمين الفلسطينيين على مستقبلهم وبلادهم، ولكي تقفَ العدوان اليهودي الزاحف



الشيخ عز الدين القسام
(جعل من نفسه قدوة للآخرين)

عليهم مـــن جميع أنحاء العـــالم .

فلم يستطيع الشيخُ المجاهدُ أن يصبرَ على هذا الظلم ، فألَّفَ فرقةً للجهاد من أصحابه والمتّصلين به ، وخرجَ بهم إلى الجبال القريبة من جنين ، لكي يبدأ من هناك نضالَه المسلَّح ضدّ الانكليز واليهود.

وبينما كان قسمٌ منهم مجتمعين في غابة كبيرة بقرب قرية (يَعبَد) في اليوم العشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ ، وشى بهم بعضُ الجواسيس إلى الحكومة ، فأرسلت عدداً كبيراً من الجنود المسلّحين ، فطوّقوهم في الغابة ، وطلبوا منهم أن يستسلموا . ولكنّ الشيخَ المجاهدَ ورفاقَه الأبطالَ رفضوا أن يستسلموا فدارت بينهم وبين الجنود معركة حامية ، انتهت باستشهاد الشيخ القسّام نفسه ، وأربعةٍ من رفاقه ، هم : الشيخ يوسف عبدالله ، ومصطفى الزيادي ، وحنفي عطيّة أحمد ، وحمد أبو قاسم خلَف. وقبض الجنودُ على الباقين وأرسلوهم إلى السجن ، حيثُ صـــدر الحكم على بعضهم بالسجن لمدة ١٤ سنة ، والبعض الآخر بالسجن لمدة سنتين .

لكنّ الحكومة لم تستطع أن تقضيَ على جماعة القسّام كلّهم بعملها هذا ، بل إنها في الواقع زادتهم شجاعةً وثباتاً ، وجعلت كلّ فلسطينيّ يتحمّس لكي يسير إلى الشهادة على طريقة القسّام. وهكذا

ظلّت النفوس مشتعلة بالغضب وبحبّ الانتقام، إلى أن كانت سنة ١٩٣٦، وعندئذٍ انفجر البركان دفعةً واحدة، وكان انفجارُه عنيفاً جداً، لم يستطع خمسةٌ وثلاثون ألف جنديّ من جنود بريطانيا أن يُخمدوه بكل ما لديهم من أسلحةٍ رهيبة، ولا استطاعت الحكومة الانكليزية أن تُرعب الفلسطينيين بالقتل والاعدام، والسجن والتعذيب.

الشهيد فرحان السعدي

وكان من رفاق الشهيد القسّام الذين استمر جهادُهم بعد موته، شيخٌ آخرُ طاعنٌ في السن اسمُه (فرحان السعدي). كان عمرُ فرحان السعدي أكثر من سبعين سنة حينما قبضت عليه حكومة فلسطين الانكليزية بعد ذلك في سنة ١٩٣٧، وكان قد جاهدَ في معاركَ عديدةٍ، وصرَع كثيراً من الجنود الذين كانوا يضطهدون قوَمه وبلاده. وكان راضياً سعيداً بهذا الجهاد، وكان كذلك راضياً بالسجن بعد اعتقاله. ولكنَّ الانكليزَ لم يكن لديهم أيُّ إثبات على أنه اشترك بقتلِ جنودهم في المعارك، وكلُّ ما لديهم ضدَّه أنهم

وجدوه يحمل سلاحاً فاعتقلوه . وقد قدّموه للمحاكمة في شهر رمضان سنة ١٩٣٧ ، وكان صائماً برغم السجن وبرغم الشيخوخة . ولم يسمحوا لمحاميه بالدفاع عنه ، بل أسرعوا في إصدار حكمهم باعدامه، ثم علقوه على المشنقه وهو صائم ، وعمرُه أكثر من سبعين سنة . ولكنه كان مسروراً وسعيداً بهذه النهاية ، لأنه مات شهيداً في سبيل إنقاذ بلاده من الظلم والعدوان .



الشيخ فرحان السعدي
(سبعون عاماً تكللها الشهادة في سبيل الله والوطن)

وبهذه المناسبه نروي ههنا أبياتاً من قصيدة طويلة رائعة للشاعر الفلسطيني أبو سلمى ، يخاطب فيها ملوك الدول العربية ورؤساءها ، ويذكر لهم بطولة الشيخ الشهيد فرحان السعدي ، فيقول :

قوموا اسمعوا من كل ناحيةٍ يصيح دمُ الشهيدِ
قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثرُ السجودِ
يمشي إلى حبلِ الشهادة صائماً مَشي الأسودِ
سبعون عاماً في سبيل الله والحق التليدِ
خَجِلَ الشبابُ من المشيب، بل السنونَ من العقودِ

وليست بطولة الشيخ فرحان غريبة ، فان كثيراً من الشيوخ الطاعنين في السنّ ، كالشيخ فرحان السعدي ، كانوا يتقدّمون بكل رضىً وسرور للموت في سبيل بلادهم .

ونحن نذكر في ما يلي قصة شيخ آخر ستبدو أُعجوبة من أعظم الأعاجيب ، ومعها صورة رائعة له وهو في لفائف المستشفى

الحاج محمود ابو مدلله

هذا الشيخ اسمه الحاج محمود أبو مدّلله ، وهو من قريةٍ صغيرةٍ بالقرب من مدينة نابلس ـ وجبلُ نابلس كلّه هو جبلُ البطولات ـ واسم هذه القرية هو (عَصيرة الشمالية) . وكان عمر الشيخ في تلك الثورة الكبرى ٧١ سنة . ولقد اشترك هذا الشيخُ الكبيرُ في معارك الثورة، وأُصيب من شظايا القنابل ومن طلقات الرصاص،

إصاباتٍ بعدد سني عمره. إحدى وسبعون إصابةً وقعت في جسده النحيل، ولكنه لم يَمُت. وكان حزيناً جداً لأنه كان يريد أن يموت شهيداً في المعارك، ولكنّ الموت كان يهربُ منه، بِرغم اصاباته الواحدة والسبعين. وقد أُخذت له هذه الصورة الفوتوغرافية وهو عارٍ تماماً من الملابس، ولكنّ جسمه كلّه كان مربّطاً بالمفائف والضمادات في مواضع إصاباته، فكأنه كان مرتدياً ثيابه.



الحاج محمود أبو مدلله

(إحدى وسبعون إصابة، بعدد سني عمره، ومع ذلك لم تكتب له الشهادة)

وقد علمنا أنّ هذا الشيخَ المجاهدَ لا يزال حياً إلى اليوم الذي نكتب فيه هذا الكتاب، وانه فى قريته عصيرة الشمالية. فلنبعث إليه الآن بتحيّاتنا الحارّة، إعجاباً ببطولته وصبره وجهاده.

الثورة

والآن نمضي فنتحدث على الثورة الكبرى ، كيف بدأت ، وكيف سارت .

لم تبدأ الثورة بجهاد الشهيد القسّام ورفاقه، بل كان ذلك تمهيداً بسيطاً لها ؛ أما هي فقد بدأت في نيسان سنة ١٩٣٦ ، بعد أن يَئِس العرب من وعود الحكومة ومن مفاوضاتها ، ورأوا هجرة اليهود من أوروبا تزداد تدفّقاً على بلادهم، وخطرَهم يزداد يوماً عن يوم .

بدأت الثورةُ ، في أول الأمر في ١٩ نيسان بشكل إضراب عام في كلّ مدينة وقرية عربية في فلسطين، ومقاطعة عامّة لليهود ، وامتناعٍ عن التعاون مع الحكومة وعن دفع الضرائب لها. فتعطّلت جميع الأعمال في فلسطين كلّها ، وقامت مظاهرات عديدة ، ضدّ الحكومة وضدّ اصدقائها اليهود . واستمرّ هذا الحال الى ٢٣ أيار - أي أكثر من شهر - ولكنّ الحكومةَ واليهود بدلاً من أن يُهدّئوا الحالةَ ويُطَمْئِنوا العرب إلى مصيرهم ومصير وطنهم ، راحوا يسيئون إليهم ويثيرون شعورهم ، وراح اليهود يَتحرّشون بهم ويشتمونهم في خُطَبِهِمْ وفي جرائدهم، ويعتدون على من يصادفونه

منهم في طريق مظاهراتهم . فكان ذلك يهيج شعور السخط والثورة في نفوس العرب .

أما الحكومة فقد أخذت تعتقلُ الزعماء العرب البارزين ، وأطلقَ رجالُ البوليس البريطاني النيران على جماعات المتظاهرين في نابلس يوم ٢٣ أيار وهم خارجون من المسجد في المساء ، فقتلوا اربعة منهم وجرحوا سبعة . وحينذاك لم يستطع العرب أن يسكتوا على هذا الظلم ، فبدأت الثورةُ المسـلّحة . وكانت هذه الثورة على الحكومة من جهة ، وعلى اليهود ومستعمراتهم من جهة أخرى . فصار المجاهدون العرب يهاجمون الجيش البريطاني والبوليس ، ويهاجمون كذلك المستعمرات ، وقوافــــل السيارات اليهودية المسافرة على طُرُق فلسطين في حراسة الجيش البريطاني ، ويفتكون بهؤلاء وأولئك ، ولا يبالون بكثرة الضحايا والمعتقلين والمساجين .

كم كانت ضحايا فلسطين في تلك الثورة الرهيبة ؟

نحن لا نعرفها بالضبط ، ولكننا ننقل بعض الأرقـام التي وجدناها في بعض المصادر العربية في الفترة الأخيرة من الثورة . لقد وردت هذه الأرقام في عدد من مجلة (ألف ليلة وليلة) اللبنانية ، رقمه ٥٣٧ ، وقد صدر في ٢٥ شباط سنة ١٩٣٩ ، أي في أواخر عهد الثورة ، وجاء فيه ما يلي :

(بلغَ عددُ المنازل المنسوفة حتى الآن في فلسطين (١٥،٠٠٠)

منزل ـ وبلغ عـــدد المسجونين الموزَّعين على مختلف السجون الفلسطينية (١٠،٠٠٠) سجين ـ وعدد المسجونين في مضارب الاعتقال (١٠،٠٠٠) أيضاً . أمّا عدد القتلى فبلغ منذُ بدء عام ١٩٣٦ ما يزيد على (١٨،٠٠٠) قتيل ، تسعون في المئة منهم عرب)

ان هذه الأرقام ضخمة هائلة ، وماذا تكون الأمة التي تقدِّم مثلَ هذا العدد الضخم من الضحايا في ثورة واحدة ؟ ! أليست أُمة أبطال ، و مثلُها حرام أن يتشرَّد في الأرض أبناؤها الشجعان ؟

ونتساءَل الآن : كم كان عدد القَتلى والجرَحى من الجيش البريطاني والبوليس خلالَ السنوات الثلاث كلّها ؟ نحن لسنا نعرفه ، ولو كنّا نعرفه لنقلناه هنا . ولسنا نستطيع أن نصدِّق بلاغات الحكومة الرسمية ، لأن تلك البلاغات كانت تكذب كثيراً في أرقامها ، فقد كانت تبالغ في إحصاء الإصابات العربية ، ولاتذكر الاّ النادرَ جدًّا من إصابات جنودها .

أنها أرقام مرعبة جدًّا ، ولو أننا حاولنا أن نذكر أرقاماً أُخرى لحوادث التخريب ، والحرق ونسف الجسور والقطارات وغير ذلك ، لكان الأمر أكثرَ رعباً وهولاً ، ولَظهر أنّ فلسطينَ لم تكن في حالة ثورة عاديّة في تلك السنوات الثلاث ، ولكنها كانت ساحةَ حربٍ شرسةٍ طاحنة ، كان فيها كلُّ عربيٍّ في فلسطين ثائراً ، يجاهدُ بنفسه وبماله وبأولاده .

حكايتان

ونروي ههنا هاتين الحكايتين الصغيرتين :

في معركة كبيرةٍ جرَت في (باب الواد) يوم ٦ تموز سنة ١٩٣٦ على الطريق بين القدس ويافا ، كان عدد المجاهدين العرب ١٦ شابّاً فقط ، وكان عدد الجنود مئات ، معهم بعض الطائرات . وكان المجاهدون متحصّنين في رأس الجبل بين الصخور الكثيرة، وأشجار الغابة الكثيفة التي تغطي المكان كلّه من قمة الجبل إلى الطريق العام في أسفله . وكان الجنود في قاع الوادي على الطريق العام ، ورصاص المجاهدين يتساقط عليهم كالمطر . ولكنّ الطائرات كانت تحوم فوقهم وتصبّ القنابل المحرقة على الأشجار ، فتندلع فيها النيران وتحرقها بسرعة لكي تكشف المجاهدين أمام رشّاشات الجنود ومدافعهم .

في هذه المعركة استُشهد من المجاهدين اثنا عشر ، ونجا منهم أربعةٌ فقط . وحمَلَ الجنودُ الشهداءَ الاثني عشر إلى قرية قريبة من الغابة ، اسمُها (دير أيوب) لكي يتعرف عليهم وعلى قريتهم ، وتنتقم منهم للعدد الكبير الذي قُتِل من جنودها .

وجاءت إحدى النساء القرويات لترى الجثث ، ثم وقفت عند بعضها وجعلت تبكي . فسألها الجنود : « لماذا تبكين ؟ » فقالت

بغضب : « وهل هذه جُثث بقر حتى ترموها على الأرض ولا تجد من يبكيها ؟!» .

ولكن لماذا كانت هذه المرأة تبكي ؟

لقد كان زوجها وابنها بين تلك الجثث !

هذه واحدة .

وحكاية أخرى من حكايات البطولة هذه نرويها في ما يلي :

كان في قرية (السيلة) في قضاء نابلس، أمرأة عجوز، وزوجها شيخ يتجاوز الستين من عمره . وفي إحدى المعارك الكبيرة التي وقعت بقرب القرية، تضايق المجاهدون ، فأرسلَ القائدُ رُسلاً يدعون القرى المجاورة إلى نجدة المجاهدين . فخرج أهلُ السيلة بسلاحهم لِفكِّ الحصار عن المجاهدين . ولكنَّ الرجل الشيخ لم يخرج معهم ، بل ظلَّ جالساً في ساحة القرية . فرأته زوجته ، وسألته لماذا لم يخرج مع الناس للقتال ؟ فقال لها إن الشيوخ معذورون بسبب ضعفهم وكبر سِنِّهم .

فماذا عملت المرأة الأبية ؟

لقد ذهبت فأحضرت رماداً، وعادت فرشّته على رأس زوجها الشيخ وقالت له : « إن الذين **لا** يستجيبون لدعوة الجهاد، **لا** يستحقّون غير رشّ الرماد على رؤوسهم !» .

إنها لامرأة عظيمة ، وتستحقّ أن نذكرها مع الأبطال العظماء .

ويجب أن نعلم أن النساء القرويات كُن يشتركن مع رجالهنَّ في الثورة، وكنَّ يحملن الماءَ والطعامَ والسلاحَ إلى المجاهدين في رؤوس الجبال، أو في قلب خنادقهم أثناء القتال. وكثيراً ماكانت شظايا القنابل وطلقات الرصاص تخترق أجسامهنَّ، وتقضي عليهنَّ شهيدات للواجب الوطنيّ. ومن هؤلاء نذكر اسم الشهيدة فاطمة خليل غزال، التي استشهِدَت في معركة عزّون سنة ١٩٣٦.

ولقد كانت النساءُ يحمِّسن الرجال أثناء المعارك بأغاريدهنَّ وزغاريدهنَّ، فكان الرجال يهجمون على الموت بقلوبٍ لاتعرف الخوف ولا التردّد.



مجاهدة قروية تحمل الماء والطعام الى المجاهدين

أما النساء في المدن فلم يكن ممكناً أن يخرجن إلى الجبال، ولذلك كنَّ يجمعن التبرّعات، ويصنعن الملابس، ويقدّمنها الى المجاهدين، ويشتركن في إبداء شعور النقمة بالمظاهرات والبرقيّات، كما كُنَّ يُسعفن الجرحى والمصابين في المستوصفات والمستشفيات.

من أناشيد الثورة

وقبل أن نستمرّ في حديث الثورة ، ونتحدثَ عن أبطالها ومعاركها ، نريد أن نذكر نشيداً من الأناشيد الحماسية التي كان يغنّيها القرويون والمجاهدون في أواخر تلك الثورة. ولو كُنّا نعرفه كلّه لأوردناه ههنا ، فهو نشيد جميل جداً ، يستحق أن يُحفظ ويروى بكلّ اعتزاز ، تذكاراً للبطولات العربية . وهذا ما نحفظه من هذا النشيد :

يحيا الوطن يحيا الدين يحيا شعب فلسطين
وانتو يا شعب العرب عالحكومة منصورين
ثَلْث سنين بليالي ما نمنا بالعلالي
واحنا بروس الجبالِ للحرب مستعدين

ooo

فليحاول كلُ قاريء أن يَسألَ من يَعرفهم من القرويين الفلسطينيين عن تكملة هذا النشيد ، فهو نشيدٌ رائعٌ كلّه حماس وبطولة .

وليسأل كذلك عن أغاني الشهيد المجاهد نوح إبراهيم التي كان ينظمها ويغنيها ويسجّـها على إسطوانـات في تلك الثـورة ، فكانت تجري على كل لسان في ذلك الحين ، فتُـلهب الشعور وتثير النخوة والحماسة في الصدور .



الشهيد نوح إبراهيم
(كانت أغانيه الشعبية تلهب النفوس ، فانتقم منه البريطانيون بقتله وتمزيق جسده)

لسنا نذكر من تلك الأناشيد إلاّ جزءاً صغيراً من نشيد واحد، كان المغـنّي الشهيد يخاطب به قائد الجيش الانكليزي في فلسطين ، واسمه (ديل) فيقول له :

يا حضرة القائد ديـل   لا تظنّ الأمّـة بتمـلْ
لكن أنت سايرْهـا   بَلكي على يدَّك بتـِحَلّ

إنّها أغنية جميلة ، تمـجّد بطولة الفلسطينيين ، وتؤكّد للقائد الانكليزي المغرور بجيوشه أن العرب لا يخافون من جيوشه ، بل يقابلونهم في ساحات الجهاد بكلّ شجاعة ، ويذيقونهم الموت . وأن عليه أن يساير أُمّة الأبطال هذه ، ويحـقّق أمانيها بالعدل ، بدلاً من أن يحاربها بجيوشه الكثيرة .

من معارك الثورة وقوّادها

قلنا سابقاً إن الثورة بدأت أول الأمر بالاضراب العام ، وإن هذا الاضراب لم ترافقه حوادث مسلّحة طيلة الشهر الأول كلّه ؛ وبعد الشهر الأول بدأت الحوادث المسلّحة . ولكن هل توّقف الاضراب حينما نشبت الثورة والمعارك الرهيبة ؟

كلاّ ، فقد استمرّ الاضرابُ ستة أشهر طويلة ثقيلة ؛ ستة أشهر تعطلت فيها جميع الأعمال غير أعمالِ الثورة والجهاد. وكان المجاهدون في أوّل الأمر من عرب فلسطين وحدهم ، فاشتروا السلاح ونظّموا قياداتٍ منفصلةً في كلّ جهة من فلسطين ، وأصبحت مراكزهم في رؤوس الجبال؛ ولكنْ كان يُعوِزُهم التنظيمُ الصحيح، والتدريبُ العسكري الحربي ، الى جانب حماسهم الوطنيّ وشجاعتهم العظيمة. ولذلك ظلّت معاركهم تتميّز بشيء من الضعف الحربي والفوضى ، لعدم الخبرة العسكرية . حتى جاء القائدُ السوري العربي فوزي القاوقجي من العراق ومعه ٥٠٠ مجاهد ، متطوّعين لخدمة الثورة في فلسطين، وتسلّم فوزي القيادة في المنطقة الشمالية .فانضمّ الى قيادته جميع القُوّاد الفلسطينيين، ليستفيدوا من خبرته العسكرية وتنظيمه

الحربي. وكان بين هؤلاء القوّاد فخري عبد الهادي، الذي كان يقود الثورة في جبال نابلس قبل وصول القاوقجي.

كان وصول فوزي القاوقجي ورفاقه في أواخر شهر آب سنة ١٩٣٦، ومنذ ذلك الحين أصبحت هجمات المجاهدين ومعاركهم تتميّز بالتنظيم العسكري والبراعة الحربية. وكانت أكثرُ معاركه تمتدُّ على جبهاتٍ كبيرة واسعة، كانت تصل أحياناً الى مسافة ١٣ كيلو متراً أو أكثر، ويشترك فيها مئاتُ المجاهدين، موزّعين على طول الجبهة بنظامٍ بارع، وكثيراً ما كان يقابلهم ألوفٌ من الجنود البريطانيين، ولكنَّ هؤلاء يرتدّون في رُعب وفوضى أمام بطولة المجاهدين، وبراعة نظامهم الحربي.

وفي بعض المعارك كان الجنود يطوّقون المجاهدين الذين أمامهم، فيظنّون أنهم سيموتون كلّهم أو يستسلمون، فاذا بمجاهدين آخرين يهاجمون الجنود من الخلف، ويطوّقونهم في وسط خط القتال لكي يبيدوهم.

وفي كثير من المعارك كانت الطائرات تشترك مع الجنود في قتال المجاهدين، وكثيراً ما كانت نيران المجاهدين تُسقِط بعض هذه الطائرات المحاربة.

وبينما كان فوزي القاوقجي يقود الثورة في جبـــال نابلس وطولكرم وجنين، كان المجاهد العربي السوري الشهير سعيد العاص يقود الثورة في جبال الخليل ، ويساعده فيها القائد الفلسطيني الشاب



القائد يوسف أبو درة

(شهيد غدر به الأصدقاء ، وتلذذ باعدامه الأعداء)

عبد القادر الحسيني . وسنتحدث فيما بعد على عبد القادر الحسيني ،

حينما نصل الى حرب فلسطين الأخيرة .

وكان في جبـال القدس وفي منطقـة يافا قوّادٌ فلسطينيون



القائد عارف عبد الرازق .
(البطل الذي مات بعيداً عن وطنه ، في بلغاريا)

آخرون ، نذكر منهم : عارف عبد الرازق ، ويوسف أبو درّة ،

والشيخ حسن سلامه، وكثيرون غيرهم.

وكان يساعد القاقجي في منطقة نابلس قُوّادٌ عربٌ متعددون،



القائد الجيلاني
(قائد منطقة الخليل المظفر، عام ١٩٣٨)

نذكر منهم: الشيخ محمد الأشمر، وجاسم علي - قائد الفرقة الدرزية -

وحمد صعب ـ قائد الفرقة العراقية ـ وفخري عبد الهادي، ويوسف أبو درّه، وحمد زواتا، وعبد الرحيم الحاج محمد، وغير هؤلاء من الفلسطينيين؛ وكلهم جاهدوا ببطولة خارقة، واستحقّوا أن تُسَجَّل أسماؤهم في تاريخ الجهاد الفلسطيني بفخر واعتزاز.

لقد اشترك في الثورة عربٌ ومسلمون من جميع الأقطار



مجاهدون في لباسهم الحربي وبينهم مجاهد من المغرب العربي

العربية والاسلامية، وسالت على أرض فلسطين دماء عربية وإسلامية، مختلطة؛ حتى إندونيسيا البعيدة كان لها عندنا متطوّعون

وشهداء. وسنتحدث الآن عن بعض البطولات العربية في هذه الثورة، وعن بعض الأبطال الذين خلّدوا أسماءهم بجهادهم وبطولتهم وتضحيتهم.

أطفال يافا

وقبل أن نبدأ بالحوادث الهامّة والمعارك الحقيقية، سنقصّ حادثه مضحكة، قام بها أولاد صغار في يافا في بداية الثورة، ولكنها روّعت رجال البوليس البريطاني ليلة كاملة. وهذه هي الحكاية:

في مساء أحد الأيام وضع بعض الأولاد في أحد شوارع مدينة يافا القديمة الضيقة برميلين فارغين على أرض الشارع، ووضعوا بينهما أنبوبة حديدية كبيرة، تظهر فوهتها كأنها فوهة مدفع، ثم قذفوا من داخل الأنبوبة قنبلة يدوية، فانفجرت وسُمِع لها دويٌ كبير. فلما نظر رجال البوليس والجيش الانكليزي إلى مكان انطلاق القنبلة، رأوا الأنبوبة الضخمة فحسبوها مدفعاً، فصوّبوا نيرانهم اليها وظلّوا يطلقون عليها نيران بنادقهم ورشّاشاتهم طول الليل. وفي الصباح اكتشفوا أن المدفع الذي أرعبهم طول الليل لم يكن غير لعبة أطفال..

ولنترك الآن أطفال يافا الجبّارة يضحكون من حماقة الجنود المخدوعين؛ وأما نحن فسنتحدث عن البطولات الحقيقية الرائعة.

ولكن ماذا نروي وماذا نترك؟ وعمَّن مِن الأبطال نتحدّث، وهم كثيرون جدًّا؟

نحن لا نقدّم بهذا كتاب تاريخ، ولكننا نعرض مشاهدَ خاطفةً من البطولات، ولهذا نكتفي من الكثير الكثير بالأقلّ الأقلّ، والقارىء يستطيع أن يتصوَّر بخياله كثيراً من البطولات الأخرى التي لم نذكرها ههنا، فيرَى أنّها كلّها أعمال عظيمة. وأن أصحابها كلّهم أبطال كبار. ونحن ننحني باجلال عظيم للابطال الذين أخلصوا في جهادهم، وللبطولات التي أدهشوا بها العالم في حينها. وفي الوقت نفسه نلعنُ جميعنا، باحتقار، اولئك الخونة والمنافقين من الجواسيس والسماسرة والزعماء الذين أضاعوا ثمرة ذلك الجهاد الطويل عبثاً.

لقد تحدّثنا في ما تقدّم على معركة باب الواد، التي قام بها ستة عشر مجاهداً، استُشهد منهم اثنا عشر، ونجا أربعة. فلنتحدث الآن على معركتين جرَتا في «بلعا» أو بالقرب منها.

معركتا بلعا

هل تعرفون « بَلعا » ، على مقربة من نابلس ؟ من كان لا يعرفها ، فيجب أن يزورها ولو مرّة ، وأن يركع على ترابها ويترحّم على الأبطال الذين سقطوا في معركتيها ؛ فذلك التراب معجون بدماء الشهداء الأبطال .

بالقرب من بلعا هذه جرت عدة معارك ، ولكن أشهرها معركتان : الأولى جرت في شهر آب سنة ١٩٣٦ ، والثانية في أوائل أيلول من تلك السنة ، وبين المعركتين نحو عشرين يوماً فقط .

في الأولى كان الجيش البريطاني قد حفر في الصباح خنادق واستحكامات في جبلين متقابلين بين بلعا ونابلس ، لكي يستحكم فيها في المساء . ولكن المجاهدين سبقوا الجيش في المساء الى احتلال هذه الاستحكامات ، فلما جاء الجنود ليرابطوا فيها ، فوجئوا بالرصال ينهال عليهم منها كالمطر . فجعلوا يزحفون على بطونهم متسلقين الجبال ليصلوا إلى الخنادق ، ولكن نيران المجاهدين راحت تحصدهم حصداً ، وتمنعهم من التقدّم . فأرسلوا إشارة لاسلكية إلى مراكز الجيش في نابلس ، فأسرعت إلى نجدتهم ١٨ سيارة عسكرية تحمل عدداً كبيراً من الجنود ، وسيارتان فيهما مدفعان جبليّان ،

وخمس طائرات . ودارت بين الفريقين معركة حامية ، استمرت نحو ثماني ساعات ، ثم انسحب المجاهدون إلى الجبال في وسط الظلام ، وعاد الجنود إلى نابلس منهوكين محطّمين لشدّة ماعانوه من نيران المجاهدين .

كم كانت خسائر الجيش والمجاهدين في هذه المعركة ؟ إن بلاغات الحكومة لم تذكر غير قتيل واحد من الجيش ، هو ضابط برتبة لفتنانت ، وأربعة جنود جرحى . أما الرقم الصحيح فلا نعرفه .

وأما المعركة الثانية فقد جرت في الصباح الباكر ، وبدأت بالاشتباك مع عشرين سيارةً عسكرية محملة بالجنود . وكان المجاهدون قد وضعوا ألغاماً في الطريق، فلما وصلت اليها السيارات العسكرية، تفجَّرت الألغام تحتها، فتطايرت قطعاً في الهواء. ونزل الذين نجوا من جنودها واختبأوا وراء حطامها ، فانهال عليهم الرصاص من الجبال المتقابلة . ثم شرعت النجدات العسكرية تصل الى المكان ، حتى بلغ عدد الجنود المشتركين في القتال خمسة آلاف جندي .

تصوروا هولَ هذه المعركة ! خمسة آلاف جندي بريطاني ، تساعدهم من الجو خمس عشرة طائرة ، كانت تلقي نيرانها بشدة على رؤوس الجبال حيثُ كان يرابط المجاهدون . وامتد ميدان المعركة مسافةً لا تقلّ عن خمسة كيلو مترات .

ولسنا ندري كم كان عدد قتلى الجنود البريطانيين ، ولكننا نستطيع أن نتصوّر ذلك بخيالنا ، فنتأكد من أنهم خسروا عددا كبيراً في تلك المعركة التي استمرّت طول النهار ، من الصباح الباكر حتى غروب الشمس .

أما خسائر المجاهدين فقد كانت عشرة من الشهداء ، وستة من الجرحى - وكان الشهداء كما يلي

(اثنان من الفلسطينيين - واثنان من العراقيين - وثلاثة من السوريين - وثلاثة من الاردنيين)

وبهذا تجمّع دم العرب على ذلك التراب العزيز ، ليعلن للعالم أن العرب أمة واحدة ، برغم كل شيء ، وأنها تشترك جميعاً في الآلام وفي الآمال ، وليس من الممكن أن تفرّق بينها الحدود والسياسات والمبادىء الطائفية الهدامة .

لقد كانت معركة بلعا الثانية معركة تاريخيه رائعة ، وكانت من مفاخر الجهاد العربي في ثورة فلسطين الكبرى ، ورمزاً عظيماً للاتحاد العربي المتين .

معركة برقا

إن المرء ليتحمّس كثيراً لمعارك البطولة العربية التي صبغت ثرى فلسطين بالدماء المؤمنة الزكية . ولهذا نروي المزيد من هذه الحكايات الجميلة :

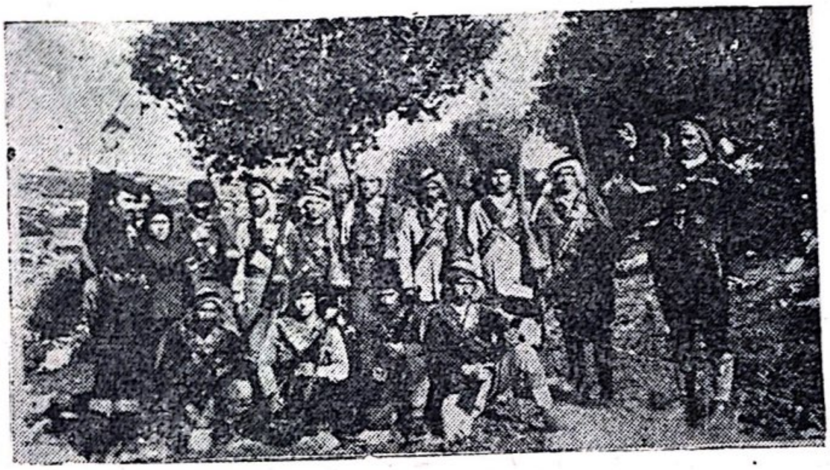
سنتحدث الآن عن معركة أخرى وقعت في جبال بُرقة وبيت امرين ، بالقرب من نابلس ، وكانت أيضاً من أهمّ معارك الأشهر الستة الأولى من الثورة ، أي في سنة ١٩٣٦ نفسها ، واشترك فيها ١٥٠٠ جندي بريطاني ، تصحبهم الدبابات والمصفحات والمدافع الجبلية ، وترافقهم من الجوّ سبع طائرات .

أليست هذه معركة هائلة ما دامت فيها كلّ هذه القوات العسكرية والحربية الهائلة ؟ فلنذكر إذن كيف وقعت هذه المعركة الهائلة ، التي امتدّ خطّ القتال فيها على مسافة ١٣ كيلو متراً .

كان المجاهدون قد رابطوا في الصباح الباكر بالقرب من بيت امرين لمهاجمة القوافل العسكرية ، ولكنَّ طائرات الاستكشاف اكتشفت أماكنهم ، فأبلغت الأمر إلى قيادة الجيش في نابلس .

فاتصلت هذه القيادة بالقوات المرابطة في طولكرم وجنين ، فهجمت كلّها في وقت واحد من جميع الجهات ، لتطويق المجاهدين والقضاء عليهم . فلما أحس بهم المجاهدون، أخذوا يبادلونهم النيران الحامية .

وكانت هناك جماعات أخرى كبيرة من زملائهم ، مرابطة على مسافات منهم ، فى الكهوف والمغاور وبين الأشجار . فهجم هؤلاء



فريق آخر من الأبطال الذين دوخوا جيوش الاستعمار

من خلف الجنود المهاجمين ، والتفّوا حولهم كالطوق قبل أن يشعروا بهم ، فوقع الجنود بين نارين حاميتين ، يصليهم بها المجاهدون من الأمام ومن الخلف ، من أفواه الرشاشات والبنادق .

فاحتدمت بين الجنود والمجاهدين معركة شديدة الضراوة ، وجعلت الطائرات تصبّ نيرانها من الجوّ بجنون على المجاهدين ،

مدة ثلاث ساعات ، لتنقذ الجنود من الطوق . وبعد ذلك كادت ذخيرة الجنود تنفذ ، وكادوا يستسلمون إلى المجاهدين ، لولا أن نجدة أخرى وصلت إليهم بالذخيرة .

فلما رأى المجاهدون تكاثر القوات العسكرية عليهم وتطويقها لهم اشتدّ عزمهم ، ومضوا يقاتلون بكل شدّة وبطولة ، إلى أن هجم الظلام ، فانسحبوا من الطوق العسكري بانتظام إلى رؤوس الجبال ، ولم يعد في استطاعة الجنود الاستمرار في القتال في الجبال الوعرة ، فعادوا إلى مراكزهم يحملون قتلاهم وجرحاهم ، وهم محطمّو القوى من مرارة القتال وعنفه .

وفي هذه المعركة أسقط المجاهدون طائرتين . ويقول بلاغ الحكومة أنه قد أصيب منهم ٢٢ مجاهداً بين قتيل وجريح ؛ ولكن كم كان عدد قتلى الجنود وجرحاهم ؟ إن بلاغ الحكومة يذكر أن إصاباتهم لم تزد على ثلاثة من الجرحى !!

القائد عبد الرحيم الحاج محمد

هذا كان كله في منطقة جبال نابلس ، التي تشمل طولكرم وقلقيلية وجنين والقرى العديدة التي تحيط بها وتتناثر بينها .



القائد عبد الرحيم الحاج محمد
(شهيد صانور القائد « ابو كمال »)

ولسنا نريد أن نمضي عن هذه الميادين العظيمة قبل أن نتحدث عن مجاهد من أكبر مجاهدي هذه المنطقة ، ومن أكبر قوّاد الثورة فيها ، وهو القائد الشهيد عبد الرحيم الحاج محمد .

هذا القائد الشهيد من قرية ذنابه بقرب طولكرم ، وهو من أسرة عُرفت بجهادها الوطني منذ أجيال طوال ؛ فأحد جدوده كانَ مع صلاح الدين في حروبه ضدّ الصليبيين ، وواحد آخر منهم أعدَمه نابليون بعد أن لقي منه ومن جماعته مقاومة طويلة عنيفة في حملته على فلسطين .

ولم يكن عبد الرحيم أقلّ وطنية من أجداده ، ولذلك هبّ عند نشوب الثورة الكبرى إلى حمل السلاح في وجه اليهود والقوات الانكليزية، على الرغم من أنه كان من أكبر التجار الأغنيـــاء في طولكرم ، وكان يمكنه أن ينصرف إلى تجارته وحدها ويترك أعباء الجهاد للاخرين - كما كان يفعل أكثر التجار والأغنياء - ولكنه جازف بماله وتجارته ، ووهب نفسه لأجل حرية وطنه العزيز.

وكان عبد الرحيم قد تلقّـى التدريب العسكري الجيّـد في تركيا حينما كان في الجيش العثماني ، ولذلك استغلّ خبرته العسكرية في تنظيم المجاهدين وقيادتهم في جبال النار ، وصار يهاجم المستعمرات اليهودية ، والقوافل اليهودية التي تسير في حراسة الجنود البريطانيين ودبّاباتهم ، ويهاجم القوات البريطانية . وكان يُلحق بكلّ هؤلاء خسائر عديدة .

وحينما وصل الى المنطقة القائدُ فوزي القاوقجي ، انضمّ

عبد الرحيم إلى جانبه ، وراحا يُعدّان الخطط ويديران المعارك معاً . واشترك عبد الرحيم في كثير من المعارك الكبيرة ، وجاهد جهاداً كلّه بطولة .

وفي سنة ١٩٣٧ توقّف الجهاد بضعة أشهر ، بسبب وصول لجنة انكليزية للتحقيق في أسباب الثورة ، وبسبب تدخّل ملوك العرب وأمرائهم لوقف القتال .



عبد الرحيم وسكرتيره ممدوح السخن

وحينذاك غادر عبد الرحيم بلده الحبيب الى سوريا ، وظلّ هناك حتى انتهت اللجنة الانكليزية من عملها ورفعت تقريرها الى الحكومة الانكليزية ،وأوصت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وعند ذاك عادت

الثورة من جديد ، وعاد عبد الرحيم من سوريا وتولى قيادة الثورة في جميع المناطق، وصار يعيّن قوّادَ المنـــاطق، ويرتّب الخطط المعارك ومهاجمـــة قوافل اليهود والجنـــود البريطانيين ، والمعسكرات البريطانية .

وليس من السهل أن نسرد المعارك العديدة التي خاضها القائد العظيم ، والتي رتب خططها ، ولا السلاح والذخيرة التي استطاع رجاله أن يستولوا عليها في مختلف المعارك .

ويجب أن نذكر أن عبد الرحيم قد ألَّف في البلاد محاكم نظامية للشعب، لكي يُغني المواطنين عن اللجوء إلى المحاكم البريطانية؛ وكان هو المرجع الأخير في الأحكام فكان الجميع يثنون على عدله ونزاهة أحكامه .

وحدث مرة أن المجاهدين قد أسروا مهندساً يهودياً من إحدى المستعمرات، وأحضروه إلى مقرّ قائد الفصيل في طول كرم، فحكم عليه هذا القائد بالموت .ولكن اليهودي استأنف الحكم إلى القائد الكبير عبد الرحيم ، فأمر عبد الرحيم بالعفو عنه وقال :

(إن هـــذا المهندس غير محارب ، وهو ذو أسرة وأطفال ، والأسير لا يُقتَلُ) .

ولقد أراد اليهودي أن يفتدي نفسه بدفع مبلغ كبير من المال ، ولكنّ القائد العربي أبى أن يقبل منه المال ، وارسله مع بعض المجاهدين ليوصلوه بأمان إلى أسرته .

فتأملوا هذه الانسانية الرحيمة ، كيف تعامل حتى الأعداء فى أوقات ضعفهم ! إنه لمثل رائع يضربه عبد الرحيم الحاج محمد في الحلم والرحمة والعدل .



فريق من المجاهدين بقيادة عبد الرحيم

وأخيراً سقط القائد الكبير شهيداً فى معركة عنيفة مع الجيش البريطاني بجوار قرية صانور - بقرب جنين - فى ١٩٣٩/٣/٢٩ ، والثورة في أواخر أيامها . وأخذ الجنود البريطانيون جثته ودفنوها

فى صانور ، ورفضوا أن يسلموها إلى أهله . وعند ذاك أضربت فلسطين كلّها لهذا التحدّي الوقح .

وبعد دفنه بثلاثة أيام اجتمع عدد كبير من المجاهدين فى تلك المنطقة ، وذهبوا الى صانور ، ونقلوا جثمان قائدهم الشهيد إلى قريته (ذنابه) ودفنوه فيها .

ولقد رثاه الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود بقصيدة طويلة ، نذكر منها الأبيات التالية :

أإذا أنشدتُ يوفيكَ نشيدي ... حقَّك الواجبَ يا خير شهيد ؟
أيُّ لفظ يَسَعُ المعنى الذي ... منك أستوحيه يا وحيَ قصيدي
كملت فيك المروءات فلم ... تُبقِ منها زائداً للمستزيد
حسرتا للدين والمجد اللذَيْ ... قد أصيبا فيك بالركن الوطيدِ
أقفرَ الميدانُ من فرسانه ... وخلا من أهله غاب الاسودِ
إن يوماً قد رُزئناك به ... جاعلٌ أيامنا سوداً بسودِ
كلُّ بيتٍ لك فيه مأتمٌ ... يندبُ الناس به أغلى فقيدِ
أيها القائدُ هذي ميتةٌ ... طالما رجّيتها منذ بعيدِ
مصرعُ الأبطال ما بين الحديد ... فى الميادين ، ورفّات البنودِ

معركة الخضر ، والقائد الشهيد سعيد العاص

ونتنقل الآن إلى ميدان آخر ؛ إلى قيادة القائد المجاهد الشهيد سعيد العاص ، على مقربة من بيت لحم .



القائد سعيد العاص

(بطل - ثائر - لحرية العرب في جميع مراحل حياته)

وسعيد العاص رجل عسكريّ قديم ، منذ زمن الحكم التركي . ولما زال حكم الاتراك ، وجاء الحكم الفرنسيّ البغيض في سوريا ، كان سعيد العاص من أكبر أبطال الثورة السورية الكبرى ضدّ الفرنسيين . وبعد انتهاء الثورة التجأ الى الاردن ، مع الذين لجأوا اليه من المجاهدين السوريين . فلما نشبت ثورة فلسطين الكبرى انضمّ اليها ، وتولّى القيادة في منطقة الخليل وبيت لحم . وبقيادته نشبت معارك بين المجاهدين والجيوش الانكليزية في هذه المنطقة ، كانت كلها مفاخر وبطولات .

وفي يوم ٤ تشرين الاول سنة ١٩٣٦ كان سعيد العاص يقود (١٢٠) مجاهداً في الجبال القريبة من قرية الخضر ، بقرب بيت جالا ،

فوصلت وشاية من جاسوس حقير الى قيادة الجيش الانكليزي في القدس، تُخبر بمكان تحصُّن المجاهدين وقائدهم. فذهب ثلاثة آلاف جندي لتطويقهم.

ثلاثة آلاف جندي بكامل سلاحهم وذخيرتهم ودباباتهم ومدافعهم، أمام مئة وعشرين مجاهداً عربياً، لا يحملون من السلاح غير البنادق وعدد قليل جداً من الرشاشات، وقليل من الذخيرة.. ألا تضحكنا هذه البطولة البريطانية كثيراً؟! وفي الوقت نفسه ألا تملأ بطولة المجاهدين العرب نفوسنا إعجاباً وإكباراً؟

واستمرّ الجنود يتوزّعون بخطةٍ حربيةٍ في طوق مُحكَم للقضاء على المجاهدين. وكان القائد سعيد العاص قد لاحظ حركاتهم من اليوم الأول، فوضع خطّة عسكرية وزّع بها رجاله لمواجهة الجيش الكبير المهاجم. فلما كان اليوم السادس من الشهر، التقى الفريقان في معركة حامية ولكنّ هذه المعركة لم يكن من الممكن أن تدوم طويلاً، لكثرةِ الجنود المهاجمين، وقلّة عدد المجاهدين. وانتهت بمصرع القائد العظيم سعيد العاص، وجرح مساعده الشاب عبد القادر الحسيني. وتمكّن المجاهدون من الانسحاب ببراعة كبيرة إلى الجبال المجاورة. وعادت الجنود البريطانية بجثة القائد الشهيد، وبالأسير الجريح عبد القادر الحسيني.

معركة رام الله الكبرى

قد يقول قائل : لقد حدثتمونا عن كثير من معارك السنة الأولى للثورة وحدها ، أوَ ليس هناك معارك أخرى في العامين التاليين :

بلى ، لقد كانت المعارك كثيرة ورهيبة ، وكان أبطالها أيضاً كثيرين ؛ وبعضهم كتبَ الله لهم الشهادة ، والبعض الآخر ظلوا أحياء إلى اليوم ، ليحدثوا أبناءهم ببطولاتهم القديمة الرائعة .

وسنتحدَّث الآن عن معركة أخرى كبيرة كان ميدانها مدينة رام الله نفسها ، والجبال التي بقربها . وقد اشتركت فيها جماعات كبيرة من أبناء القرى ، كما اشتركت فيها قوات كثيرة من الجيوش البريطانية ورجال البوليس ، ومعهم ثماني طائرات ، كانت تصبّ نيرانها بلا رحمة على المجاهدين الذين توافدوا على ميدان المعركة من جميع جبهات الثورة القريبة .

وهذه حكاية تلك المعركة الرهيبة .

في أواخر شهر تموز سنة ١٩٣٨ استطاع فريق المجاهدين، بقيادة القائد عمر النوباني ، أن يحتلّوا مدينة رام الله لمدة ثمان وأربعين ساعة ، وأن يخرجوا منها القوات الانكليزية ، ولكن بعد

ذلك تدفقت الجنود على المدينة ، من جهة القدس ، ومن جهة نابلس ؛ فاشتبك المجاهدون معهم في معركة دموية شديدة الهول ، وصارت النجدات تتدفق بكثرة على الفريقين ، والقتال يزداد شدة



عرب من كل مكان يشتركون في النضال العربي في فلسطين

واحتداماً . واستمرت المعركة عشر ساعات ، كانت فيها كأنها الجحيم ، أو البراكين الهائلة المتفجرة .

لقد التقى فيها ألوف الجنود ، وألوف المجاهدين الثائرين على الظلم .وقد استطاع المجاهدون أن يسقطوا إحدى الطائرات بنيران رشاشاتهم ، ولكنهم خسروا في المعركة خمسة وعشرين شهيداً ، وعدداً غير قليل من الجرحى،وثلاثة من الأسرى الذين نُفذ فيهم

بعد ذلك حُكم الاعدام في سجن القدس المركزي . ونذكر منهم المجاهد الجريء جورج الصاع من أبناء رام الله .

أما خسائر الجنود فان بلاغات الحكومة الرسمية قد تكتمت فيها كثيراً ، كالعادة ؛ ولكن بعض المصادر العربية ذكرت أن خسائرهم كانت كما يلي :

القتلى : ضابط بوليس واحد ، و٨٧ جندياً .

الجرحى : نحو مئة جريح .

احتلال القدس القديمة

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي استطاع فيها المجاهدون أن يحتلوا مدينة لمدة قصيرة ؛ ففي أواخر الثورة أيضاً احتل مجاهدو القدس مدينة القدس القديمة لمدة ثلاثة أيام ، وطردوا القوات الانكليزية من داخل أسوارها ، ومنعوا الدخول إليها والخروج منها ، فظلت المدينة القديمة معزولة عن العالم طوال هذه المدة ، وليس فيها سوى داوريات المناضلين المسلحين بالمسدسات ، والقنابل اليدوية تتدلى على وسط كل منهم ، ومنعوا التجول خارج البيوت ، لئلا يتعرض السكان لرصاص الجنود الذي كان ينهال على المدينة من خارج الأسوار بلا انقطاع .

لقد تحصّن الجنود البريطانيون في أعلى العمارات الكبيرة العالية خارج الأسوار ، بينما تحصّن المناضلون ببنادقهم وقنابلهم اليدوية في أعلى الأسوار ، وظلّ تبادُل النيران مستمرًّا بين الطرفين طوال الأيام الثلاثة.



ثائر في سلاحه
(بمثل هذا تحمي الأوطان)

وكان كلّ مَن يظهر خارج بيته من سكان المدينة القديمة ، لا يسلم من رصاص الجنود . ولم يكن في داخل المدينة مستشفيات ولا أطبّاء لاسعاف المصابين ولا كان يمكن نقلهم إلى خارج السور لاسعافهم ، ولذلك جُرِح وقتل من السكان كثيرون خلال هذه المدة .

وفي صباح اليوم الرابع تجمّعت ألوف من الجنود البريطانيين وهاجموا أبواب السور من جميع الجهات ، وأخذت رشاشاتهم وقنابلهم تتفجّر بجنون . وكانت الأبواب كلها مغلقة ، وخلفها عدد

من المناضلين المسلّحين ، ومن فوق الأسوار كانت القنابل اليدوية تنهال على رؤوس الجنود الهاجمين على الأبواب المغلقة .

لقد كانت معارك أبواب السور رهيبة ، كثيرة الضحايا من الجانبين ؛ فقد استمات الجنود في الهجوم ، واستمات المناضلون في الدفاع . ولكنّ عدد المناضلين كان قليلاً ، وكان سلاحهم ضئيلاً ؛ فكان لا بدّ لهم من أن يندحروا أمام ألوف الجنود المسلّحين بالرشاشات ، وأن يتخلّوا عن الأبواب عند ما نفدت ذخيرتهم . وهكذا دخل الجنود الى المدينة ، وهم يطلقون الرصاص المجنون على كل نافذة ، وعلى كل وجه يتراءى لهم في أحد البيوت. وراحوا يتجولون في جميع الأحياء والشوارع والأزقة ، لا يرحمون مَن يصادفونه ، سواء أكان إمرأة أم شيخاً أم طفلاً؛ لقد أعماهم الجنون وحبّ الانتقام ، فأبرزوا كلّ ما في نفوسهم من وحشية وحبّ لسفك الدماء . لقد كانت خسائرهم عند أبواب السور كبيرة ، من قنابل المناضلين الذين في أعلى السور ورصاصهم ، فأرادوا أن يفتكوا بسكان القدس انتقاماً منهم . وقد فتكوا بكثيرين ، فزاد ذلك نقمة من الشعب عليهم ، وكراهيته لهم .

نسف وعقوبات صارمة

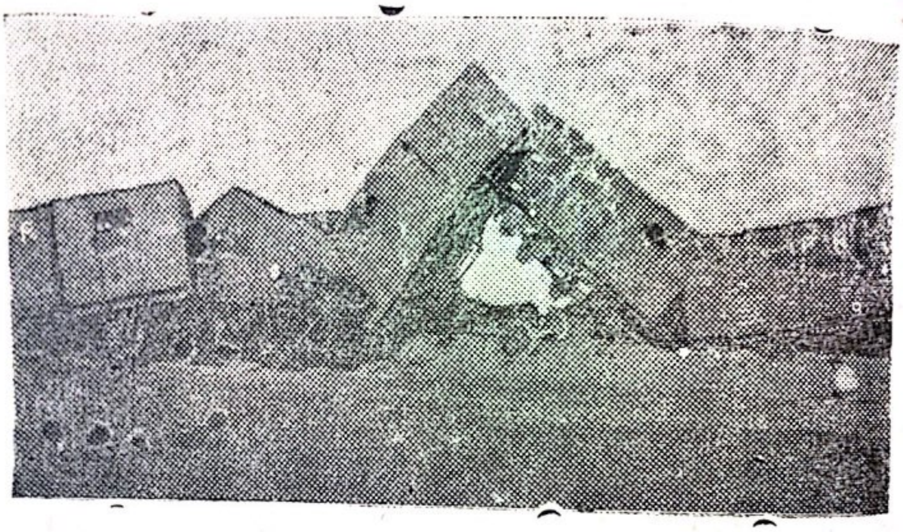
كان هذا العدد الكبير من معارك البطولة العربية ـ عدا معركة القدس ـ معارك جبال ووديان ، خارج المدن والقرى . فهل ظلّت المدن الكبرى بعيدة عن الثورة وعن النزاع ؟

كلاّ ، فكل مكان في فلسطين كان ميداناً للثورة : في القدس ، ويافا ، وحيفا ، وعكا ، وطبريا ، وصفد ، وفي كل مكان آخر كانت القنابل تتفجر في الأحياء اليهودية، وفي الأحياء العربية ، وكذلك حوادثُ إطلاق الرصاص ، والاغتيالات الفردية في الأزقة المظلمة وفي الشوارع العامة . وكان لكل ذلك ضحايا عديدةٌ جداً من العرب ومن الانكليز ومن اليهود . وكانت الحرائق في البيوت والمعامل كثيراً ما تندلع في الأحياء العربية ، وفي الأحياء اليهودية.

كلُّ ذلك كان يحدث طوال مدة ثلاث سنوات، في جميع انحاء فلسطين ؛ وخمسةٌ وثلاثون ألف جندي بريطاني ، بجميع معداتهم الحربية الثقيلة والخفيفة، وطائراتهم ؛ لم يكونوا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً أمام البطولة التي كانت تتحدّى الظلم ، وتهزأ بالموت، وترحّب بكل عذاب وألم واضطهاد في سبيل وطنها وحريتها وكرامتها.

فبماذا كانت الحكومة تعاقب المدن والقرى الفلسطينية ؟

عندما كانت تجري معركة ، أو يقع حادثُ نسف قطار عسكري ،أو إطلاقُ رصاص على قافلة يهودية أو عسكرية بقرب إحدى القرى، كانت الحكومة تجمع سكان القرية القريبة،وتسوق الرجال الى السجون ،وتوقف النساء والشيوخ والاطفال طول النهار في البرد أو الحرّ خارج القرية بدون طعام ،ولا تسمح لهم بالجلوس .



قطار منسوف

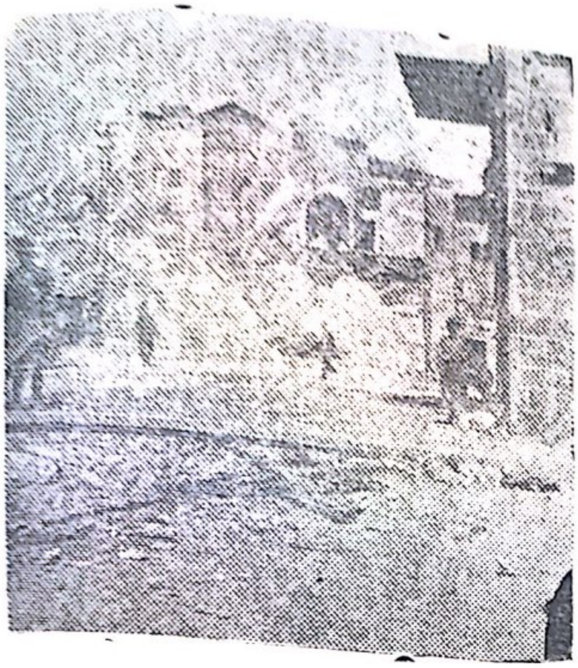
(واحدة من عشرات الحوادث التي كان يقوم بها المجاهدون الابطال)

وفي بعض الاحيان كانت الحكومة تنسف القرية كلها بالديناميت . وقد زاد عدد القرى التي نسفتها الحكومة بأكملها ، وشرّدت أهلها عنها ، على خمس وعشرين قرية .

أما في المدن فقد كانت الحكومة تنسف أحياء كبيرة كاملة،لأن الرصاص كان ينطلق منها على الجنود . وقد فعلو مثل هذا في مدينة

يافا القديمة ، وفي مدن أخرى غيرها .

وهناك عقوبة أخرى كانت تفرضها الحكومة ، وهي عقوبة الغرامات المالية ؛ فاذا تدهور قطار عسكري بجانب مدينة أو قرية ، أو اذا نُسِفت سيارة عسكرية ، أو حدث للقوات البريطانية أي حادث مزعج ، كانت تفرض على أقرب مدينة أو قرية الى مكان الحادث ألوف الجنيهات ، وتحصّلها منها بقوة الجيش بدون رحمة.



من الاحياء المهدمة
(هكذا انتقم البريطانيون من يافا العربية الجبارة)

ومع كل هذه العقوبات الشديدة الصارمة ، لم يَخَف العرب ، ولم يرجعوا عن الثورة ، إلا بعد أن ذاق منها الانكليز واليهود أشدّ أنواع الهول والمرارة ، مدة ثلاث سنوات .

والآن لنَعُد الى الارقام التي قدّمناها في صفحة سابقة ، ولنرى كم جاهدَ عربُ فلسطين في تلك الثورة ، وكم قَدَّموا من ضحايا ومن شهداء ، وكم صبروا على مشقات الجهاد وأهوال المعارك . لنعد اليها

ونقرأ عدد القتلى، وعدد المساجين والمعتقلين من العرب في سنوات

الثورة الثلاث :



الاحياء المهدمة
(هكذا انتقم البريطانيون من يافا العربية الجبارة)

١٨٫٠٠٠ قتيل

١٠٫٠٠٠ سجين

١٠٫٠٠٠ معتقل

١٥٫٠٠٠ منزل هُدِم

أرقام كبيرة ، كبيرة جداً ، ليس من السهل أن تقدّم مثلها أمة صغيرة كعرب فلسطين ، لولا البطولة ألتي لا تقيم وزناً للأرقام الكبيرة ، في سبيل غايتها الكبيرة .

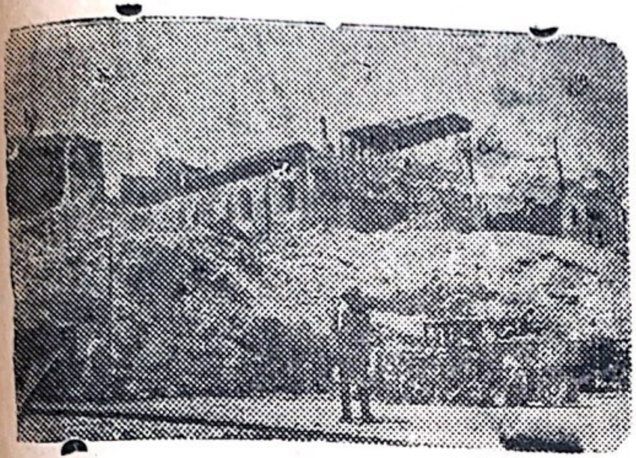


الأحياء المهدمة
(هكذا انتقم البريطانيون ون من يافا العربية الجباره)

ومع ذلك لم يقف الأمر عند هذه الأرقام ، فسنعود في الفصل التالي لنتحدث عن ثورتهم الأخيرة ، التي انتهت بمأساتهم العظمى ، فأصبحوا

بعدها لاجئين مشرّدين ، كما نراهم اليوم .

فالى اللقاء في الفصل التالي ؛ وليذكر الطلاب العرب أنهم هم المسؤولون في المستقبل القريب جدًّا عن ردّ الكرامة الى هذه الأمة، وطرد الاعداء من أرض الوطن ؛ وأنهم هم المسؤولون في المستقبل القريب جدًّا كذلك عن هدم الحواجز ومحو الخلافات من بين أقطار أمتهم العربية ، لكي تواجه أعداءها وهي كتلةٌ واحدة، ورأي واحد ، وصفٌ واحد ، فتعيش عزيزة كريمة ، لاتنالها اطماع الأقوياء الغادرين .



الأحياء المهدمة

(هكذا انتقم البريطانيون من يافا العربية الجبارة)

نداء الجهاد



لبيك يا فلسطين!

الفصل الرابع

الثورة الاخيرة

سنة ١٩٤٧ ـــ ١٩٤٨

تدريب اليهود وتسليحهم

نصل الآن إلى المرحلة الأخيرة من مراحل الجهاد الفلسطيني، بعد أن عرفنا شيئاً عن بعض مراحله السابقة ، وأبطاله الخالدين الذين جاهدوا باخلاص وبطولة وتضحية .

قد يكون هناك من يظنّ أن الحكومة الانكليزية في فلسطين واصدقاءها اليهود قد تعلّموا درساً من ثورات العرب السابقة، ولا سيّما من ثورتهم الأخيرة الكبرى، التي تحدّثنا عنها في الفصل السابق. كلاّ ، فالحقيقةُ أن ظلم الحكومة قد زاد كثيراً عن قبل، وزاد تشجيعُها للهجرة اليهودية ولتسليح اليهود، وتدريبهم على الجندية والأعمال الحربية. فحينما توقف العرب عن ثورتهم الطويلة، كانت الحرب العالمية الثانية على وشك النشوب، أو لعلّها كانت قد بدأت في أوروبا. فاشتركت فيها بريطانيا، وأخذت تجنّد الشبّان من جميع البلاد الخاضعة لها، وترميهم في ميادين الحروب.

فاغتنم اليهود هذه الفرصة وطلبوا قائداً بريطانياً يدرّب شبّانهم على الجندية وأعمال الحرب. فقدّمت لهم بريطانيا قائداً عسكرياً درّب منهم ألوف الشبان والفتيات. وكان هؤلاء الشبان المدرّبون هم الذين تألفت منهم فيما بعد عصابات اليهود التي كانوا يدعونها: (الهاغاناه) و (الأرغون) و (شتيرن) و (البالماخ)، وهذه العصابات المجرمة هي التي يسمّيها اليهود لآن جيش إسرائيل.

ولم يكتفِ اليهود بهذا، بل ألّفوا فرقاً عسكرية أخرى، تطوّعت للذهاب مع البريطانيين الى ميادين القتال للتمرّن على أعمال الحروب. ولكنّ هذه الفرق المتطوّعة لم تكن تحارب كبقية الجنود في الميادين، بل كانت تتمرّن لتعود بعد ذلك إلى فلسطين وتحارب العرب فيها، كما كانت تريد بريطانيا، وكما كانت تريد الوكالة اليهودية.

وهكذا نرى أنّ بريطانيا اغتنمت فرصة توقّف الثورة العربية في فلسطين، وبدلاً من أن ترجع عن ظلمها وجرائمها، وتُنصف العرب في بلادهم، راحت تقوّي اليهود عسكرياً، وفي الوقت نفسه راحت تقدّم لهم مساحات كبيرة من الأراضي الحكومية وغير الحكومية، وتشجّع يهودَ العالم على الهجرة الى فلسطين، إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية، عام ١٩٤٥؛ وبعد ذلك صارت بريطانيا نفسها تبيع الأسلحة والدبابات والطائرات التي زادت عن حاجتها في الميادين الى اليهود، وتجعلهم يستعدون لمحاربة العرب،

وطردهم من بلادهم .

ولكن كيف كانت تعامل العرب !

لقد كان العربي الذي يُوجد معه ولو خرطوشة فارغة، يُسجن ويُعذب، وقد يُشنق لأجل حمل السلاح. أما المستعمرات اليهودية فقد كانت مملوءة بالأسلحة الكثيرة المختلفة ، من بنادق ، ومدافع رشاشة ، ومدافع ثقيلة ، وقنابل ، وغير ذلك . وكانت الحكومة الانكليزية ترى هذه الأسلحة ، وتكشف أماكنها بنفسها ، ولكنها كانت تغمض عنها عيونها ، ولا تعمل شيئاً يزعج اليهود بسببها .

فماذا كان يُنتَظر أن يحدث نتيجة لهذا الظلم من الحكومة، ونتيجة للتسلّح والتجنيد الحربي من اليهود ؟

لقد كان العرب يحتجّون ويقاومون بقدر استطاعتهم ، ولكن آذان بريطانيا كانت صمّاء دائماً، لا تسمع أصوات العرب المظلومين المضطهدين في وطنهم ، ولا تهتمُّ بان تقيم العدل والحقّ في الوطن المعتدى عليه . وهل يقيم الظالمون وزناً للحق والعدل ؟ ألم يَقُل المرحوم أحمد شوقي :

وللمستعمرين وإن ألانوا قلوبٌ كالحجارة لا تَرِقُّ

وأخيراً لمّا أصبح اليهود أقوياء، أرادوا أن ينتهي حُكم الانكليز في فلسطين ، ونَسُوا فضل بريطانيا عليهم .

فماذا عملوا ؟

العصابات الشريرة

لقد أخذت عصاباتهم الشريرة، التي دربتها بريطانيا وسلحتها، تقتل الانكليز، وتسرق أسلحتهم من معسكراتهم، وتعذب جنودهم وقضاتهم؛ وكل ذلك لكي يرغموا البريطانيين على الانسحاب من فلسطين وتركها لهم. ففي إحدى المرات نسفوا بالألغام عمارة فندق الملك داؤد في القدس، وكانت فيها قيادة الجيش البريطاني، ودائرة



فندق الملك داؤد في القدس
(١٢١ ضحية بأيدي الغدر اليهودي، والمكافأة ... هي إنشاء دولة « اسرائيل »)

السكرتير العام لحكومة فلسطين. وكان معقوداً فيه في تلك الساعة

اجتماع لرؤساء الدوائر الانكليز والعرب. فانهارت طبقاته السَّبْعُ على رؤوس من فيها من الموظفين والضباط، فزادت الضحايا على ١٢٠ شخصاً، كان بينهم عددٌ من كبار الموظفين البريطانيين في دوائر الحكومة، والباقون كلّهم من العرب.

وفي مرة ثانية خطفوا قاضياً إنكليزياً من وسط المحكمة، وجعلوه أسيراً عندهم عدةَ أيام وهم يعذبونه. وفي مرات أُخرى خطفوا ضابطاً إنكليزياً من قلب بيته، وعذّبوه وجرّحوه. وخطفوا ضباطاً آخرين وجلدوهم في المستعمرات اليهودية أمام بعض الفتيات اليهوديات، وخطفوا مرةً جنديين وقتلوهما وعلّقوهما على شجرتين، وحَشوا جوفيهما بالمتفجرات، لكي تنفجر فتقتل مَن يجيئون للبحث عنهما.

وفي مرات عديدة أُخرى كانوا يهاجمون القطارات العسكرية ويدّمرونها بالمتفجرات، أو ينهبون الأسلحة التي فيها. وكذلك كانوا يهاجمون المطارات والمعسكرات البريطانية، لسرقةِ ما فيها من الأسلحة والثياب العسكرية، ويقتلون الجنود الذين يعترضونهم فيها. وفي خارج فلسطين قتلوا شخصية بريطانية كبيرة، وهو اللورد موين الذي قتلوه في مصر.

جزاء الخيانة

لقد قابل اليهود فضل بريطانيا العظيم عليهم، بهذا الجحود المجرم المتواصل .

ولكن ماذا فعلت بهم بريطانيا مقابل هذه الاعتداءات الاجرامية الرهيبة ؟

سيقول الذين لا يعرفون الحقيقة : « لابدّ أن يكون الانكليز قد أعدموا جميع زعماء اليهود ، وهدموا الوكالة اليهودية على رؤوس أصحابها !... »

كلاّ ، كلاّ ؛ فان بريطانيا العظمى !!! - لم تفعل شيئاً يزعج اليهود على الاطلاق ، بل احتملت كلّ ضرباتهم صابرةً راضية . وسنرى فيما بعد أنها لم تكف بهذا السكوت وحده ، بل كانت تحمي اليهود في كلّ معركةٍ ينتصر فيها العرب عليهم . وقبل خروج البريطانيين من فلسطين في ١٤ أيار سنة ١٩٤٨ ، سلّموا إلى اليهود جميع الأماكن العسكرية الهامة التي كانوا متمركزين فيها كما سلّموهم قبل ذلك مدينة حيفا ، ومدينة طبريا ، وبعض الأماكن الأخرى. وفي القدس سلّموهم جميع أحيائها الجديدة ؛ وكانوا قبل ذلك قد أنقذوا مستعمراتهم العديدة من التدمير ، وباعوهم الطائرات والدبابات والأسلحة الكثيرة .

أما العرب فقد كانت القواتُ البريطانية تساعدُ اليهود على الفتك بهم ، وعلى إحتلال قُراهم أو تدميرها . وحينما كانوا يحتّلون مكاناً يهودياً ، كانت القوات البريطانية تُسرع وتخرجهم منه ، وتعيدُه الى اليهود . فهل بعد هذا كان العرب يستطيعون أن يطيقوا هذا التحيّز المجرم ؟ ثم هل كان من الممكن أن يصمدوا طويلاً أمام هذا التعاون الأثيم ضدَّهم ، بين القوات البريطانية واليهودية معاً ؛ وكلّها قوات نظامية مسلّحة أقوى سلاح ، والعرب يعوزهم التنظيم والسلاح معاً ؟!

لقد جاهد العرب كثيراً ليتخلّصوا من الانكليز ، ومن اليهود معاً . وكانت بدايةُ ثورتهم الأخيرة في شهر كانون الأول سنة ١٩٤٧ ، بعد أن تآمرت عليهم بريطانيا وأميركا والدول الكبرى في هيأة الأمم ، وقررت تقسيم فلسطين ، وإعطاء الساحل الفلسطيني الخصب ، والاراضي الزراعية الصالحة ، كلّها لليهود ، وإبقاء الاماكن الجبلية غير الصالحة للعرب . هناك ثار العرب على هذا الظلم الذي اشتركت فيه دولُ العالم الكبرى ، بتحريض خبيث من بريطانيا وتحدٍّ وقح من أميركا .

ولم يكن لدى العرب أسلحة حينما بدأوا ثورتهم . ونحن

نذكر أنهم في الايام الاولى من الثورة كانوا يهاجمون السيارات اليهودية بالحجارة ، واذا وجدوا يهودياً في شوارعهم كانوا يلاحقونه بالعصي أو الامواس . وكان يندرُ جداً أن يوجد مع أحد منهم مسدّس صغير . أما اليهود فقد كانت الأسلحة متوفرة لديهم ، وكان شبانهم وفتياتهم مدرّبين تدريباً عسكريّاً حسناً ، ومستعدين لمحاربة العرب واحتلال فلسطين .

غير أنّ العرب ، برغم ذلك كلّه ، لم يبالوا بقوة اليهود ، ولا بقوة الجيش الانكليزي الذي كان يحميهم ويعمل لتسليم البلاد إليهم . فأعلن العربُ الاضراب العام ، وفي اليوم الاول من الاضراب بدأت حوادث الحرقِ والتدمير والاصطدامات بين العرب واليهود ؛ وبدأ العرب يتسلّحون بما يجدونه من الأسلحة ، ويدفعون ثمنها غالياً جداً ؛ فقد وصل ثمن البندقية الواحدة إلى مئة جنيه أو أكثر ؛ وثمنُ الرصاصة الواحدة إلى أكثر من سبعة قروش أحياناً . ومع ذلك لم يبالوا بهذه الأسعار الخيالية ، بل صاروا يتسلّحون باستمرار وازدياد ، ليتمكنوا من مقابلة اليهود في حرب صريحة مكشوفة .

غدر اليهود

***

في هذه المرة لم تكن ثورتهم كالثورات السابقة، بل كانت حرباً حقيقية: هم وحدهم في جهة، واليهود والانكليز في جهة ثانية. فلم يعدْ يفيدهم أن يعتصموا بالجبال فقط، ويتربصوا بالقوافل المارّة ـ كما كانوا يفعلون في الثورة السابقة ـ بل كانوا مضطرين إلى أن يقابلوا اليهود في كل مكان: في الشوارع، والأحياء، والطرُق العامة بين المدن والقرى، وفي كل مكان آخر. ومع أن سلاحهم كان قليلاً جدّاً، وكان يكلّفهم أثماناً فاحشةً جدّاً، ومع أنهم لم يكونوا منظّمين ولا مدرّبين على الفنون الحربية، إلّا أنّهم استطاعوا في أماكن عديدة، وفي مرات كثيرة أن يذيقوا العصابات اليهودية المسلّحة والمدرَّبة أشدَّ الأهوال. وفي كلّ مدينة كان اليهود يكادون ييأسون من محاربتهم، لولا أن الجيوش الانكليزية كانت تسرع إلى حمايتهم، وتردّعنهم العرب المنتصرين

ونروي ههنا بعض الحوادث التي جرَت في هذه الثورة، لنرى كيف كان الفلسطينيون يتغلبون على اليهود في المواقع الحرجة وفي المقابلات المكشوفة.

حدث مرةً في مدينة حيفا أن العمال العرب الذين كانوا

يسهرون على العمل فى الليل ، في معامل تكرير البترول، كانوا في الصباح واقفين في الصف لقبض رواتبهم . فمرّت بقربهم سيارة يهودية ، وألقت بينهم قنابل ومتفجرات ، فقتلت عدداً كبيراً منهم . فلما علم بالأمرِ العمالُ الآخرون الذين يعملون في النهار في تلك المعامل الكبيرة ، أوقفوا جميع الآلات حالاً ، وحملوا الفؤوس والمجارف ، و قِطعَ الحديد والخشب التي وجدوها هناك ،وهاجموا بها العمال اليهود الذين يعملون معهم ، وراحوا يضربونهم بها في فورةٍ من الغضب الشديد .

فماذا كانت نتيجة المعركة ؟

لقد خسر اليهود فيها ٥٨ قتيلاً ، كلّهم مهندسون وعمّالٌ فنيون ؛ وأكثرَ من ٨٠ جريحاً ، كانت جراح أكثرهم خطرة .

هذه واحدة . وفي ما يلي بعض الحوادث الاخرى :

في القدس الجديدة ، وفي حي القَطَمون الجميل، القريب من الاحياء اليهودية ، هاجمَ اليهود مرةً في منتصف الليل فندقاً جميلاً ضخماً اسمه (فيلاّ سميراميس) ، ونسفوه بالمتفجرات على مَن كان فيه ، فكانت ضحاياه كبيرة . ومن بعد هذه الحادثة ألقوا براميل المتفجرات مرتين في ساحة باب العامود ، ومرة في باب الخليل . وفي كل مرة كانت المتفجرات تقضي على عدد من الضحايا البريئة من العرب .

وانتقام العرب

فهل سكت العرب على هذه الجرائم ؟

كلاّ ؛ فقد عمل قائد القدس الكبير عبد القادر الحسيني بعد ذلك أعمالاً باهرة ، جعلت اليهود يرتجفون رعباً ، ويملأون الدنيا كلّها صياحاً . وهذه بعض أعمال عبد القادر الحسيني ورفاقه من المناضلين العرب :

١ ـ في قلب الاحياء اليهودية الكبرى في القدس، وفي وسط الشارع الذي كان يُدعى (شارع يافا) ، عمارة كبيرة كانت تُطبَع فيها جريدة يهودية تصدر باللغة الانكليزية ، كان اسمها (البالستاين بوست) وبجانب هذه العمارة عشرات من العمارات الاخرى الضخمة مثلها .

في مساء أحد الايام استولى المناضلون على دبابة من دبابات البوليس البريطاني ، وعلى ملابس من ملابس البوليس البريطاني فركب عدد منهم الدبابة البريطانية وهم في ملابس البوليس ، لكي يوهموا اليهود أنهم بريطانيون ، فلا يعارضهم حُرّاس الاحياء اليهودية ـ لأن البريطانيين كانوا يتجولون بدون معارضة في الاحياء اليهودية والعربية ـ وبهذه الطريقة دخلوا بالدبابة الى قلب الاحياء

اليهودية ، ووضعوا المتفجرات في عمارة (البوست) ، وعادوا الى الاحياء العربية . وعند ذلك دوّى انفجار عظيم رائع ، دمر نحو أربع عمارات كبيرة ، وصدّع عدداً آخر من العمارات القريبة ، وقضى على عدد كبير من اليهود المقيمين في ذلك الحيّ اليهودي .

٢ ـــ وفي مرة ثانية ـ بعد الحادثة السابقة بمدة قصيرة ـ عاد المناضلون العرب في الصباح الباكر من أحد الأيام . فركبوا دبابة بريطانية استولوا عليها كالمرة الأولى ، وأخذوا معهم سيارة شحن كبيرة فيها ثلاثة أطنان من المتفجرات الشديدة الانفجار والتدمير ، ودخلوا الى شارع (بن يهودا) وهو قلب الأحياء اليهودية التجارية في القدس ، وبعد مسافة قصيرة جـــداً عن عمارة (البوست) وهناك وضعوا سيارة المتفجرات في أحد الشوارع الضيقة في الحيّ ، وفجروا حملها الكبير . فاهتزت القدس كلها لهذا الانفجار المريع ، وتهدمت عشرات العمارات الكبيرة على من فيهـا من السكان ، وما فيها من المتاجر والمصانع الكبيرة .فكانت ضحايا هذا الانفجار تُعَدّ بالمئات .

وقد كان من نتيجة هذا الحادث والذي سبقه ، أنّ اليهود أصبحوا في ذُعر شديد ، لا يجدون الأمان حتى في أحيـــائهم الشديدة الحراسة .

٣ ـــ ولم يكتف عبد القادر الحسيني بهذين الحادثين . بل دبّر حادثاً آخر أكثر أهمية منهما ، وإن يكن أقلّ منهما أضراراً وضحايا . فاتفق مع شاب من بيت لحم اسمه (أنطون داؤد) ، كان يعمل سائقاً لسيارة القنصلية الأميركية في القدس ، وكان لذلك يستطيع أن يدخل إلى الوكالة اليهودية متى شاء لأنه معتاد أن يحمل إليها أشياء من القنصلية . فسلّمه عبدالقادر طردين كبيرين ، وطلب منه أن يضعهما في قلب الوكالة اليهودية . فمضى أنطون في سيارة القنصلية ، وقال لحراس الوكالة اليهود إن الطردين هدية من أميركا . ثم دخل ووضعهما في مكان مناسب من العمارة الكبيرة وخرج من هناك مسرعاً . فانفجر الطردان انفجاراً مروّعاً ، وتطايرت بانفجارهما أجزاء من عمارة الوكالة على الأعضاء المجتمعين في داخلها ؛ فاصيب عدد كبير منهم بجراح خطرة ، وقُتِل منهم عدد آخر .

كانت هذه الحادثة عظيمة الوقع في نفوس اليهود ، لأنها جعلتهم يحسّون بأن ليس لهم أمان حتى في قلب حكومتهم ــ وكانت الوكالة اليهودية تقوم مقام حكومة لليهود في فلسطين ـــ .

٤ ـــ ومرةً أخرى أراد العربُ أن ينتقموا من اليهود في حيٍ كبير من أحيائهم أسمه (مُنتفيوري) يقع فوق بِركة السلطان،

بقرب باب الخليل في القدس. فقد كان هذا الحيّ مسيطراً على الطريق العامّة بين باب الخليل والمدينة القديمة من جهة، وأحياء القدس العربية الجديدة من جهة أخرى، وكذلك بين القدس وبيت لحم والخليل، وكان حرّاسه اليهود من أبراج الحراسة في هذا الحيّ، يطلقون النار على السيارات المارّة في تلك الطريق.

فركبَ أحد المناضلين العرب سيارة شحنٍ كبيرةً مملوءةً بالمتفجرات، وانحدر بها من باب الخليل عند المساء. حتى وصل في انحداره الى أول الحيّ اليهودي، ثم نزل من السيارة وتركها تنطلق وحدها بحملها الرهيب. وما كاد يبتعد قليلاً حتى ارتطمت السيارة ببعض بيوت الحيّ المجرم، فانفجرت محتوياتها انفجاراً هزّ جميع أرجاء القدس بقوّته وعنفه. وكان من نتيجته أن تهدَّم القسمُ الأكبرُ من بيوتِ الحيّ اليهودي وقُتِل وجُرِحَ فيه عددٌ كبير من السكان اليهود.

وليس هذا فقط، فقد استطاع عبدُ القادر الحسيني، بقوّات المناضلين القليلة التي كان يقودُها، أن يمنعَ القوافلَ اليهوديةَ من أن تسير بين القدس وتل أبيب؛ فقد رابط فريقٌ من المناضلين في الجبال التي على جانبي الطريق، وجعلوا يفتكون بكل قافلةٍ يهودية تسير على تلك الطريق، ويستولون على ما تحمله من مُؤنٍ وسلاح.

وقد عمدوا إلى ردم الطريق بالحجارة الضخمة الكثيرة ، بحيث لم تعد صالحةً لسيرِ السيارات . وفي المدة الأخيرة من حياة عبدالقادر انضمّ الى المجاهدين في باب الواد جماعـة من البـدو الأردنيين المتطوّعين للجهاد، بقيادة الشيخ هرون بن جازي ، واشتركوامعهم في ردم الطريق ومنع القوافل اليهوديةمن المرور عليها ،

باب الواد مقبرة اليهود

وبعد وفاة عبد القادر جرَت هناك معركةٌ عظيمة كانت من أعظم معارك فلسطين ، خَسـر فيها اليهود أكثر من ثمانمئةِ قتيل ، ظـلّت جُـثثهم ملقاةعلى الطريق بضعةَ أيام،لتشهدللعالم كلّـه على أن أبطالَ اليهود ، عند المواقع الحاسمة ، ليسوا أشجعَ من الأرانب ...

وتفصيلُ الحادث أنَ اليهودَ بعد أن استوَلوا على القَسْطلِ - وسنروي بعد قليل قصةَ معركة القسطل الكبرى - ظنَـوا انهـم يستطيعون أن يسيطروا على طريق باب الواد كلّـها . فأرسلوا من تل أبيب قافلةً كبيرةً من السيارات ، تحمل المؤن الى يهودالقدس المحاَصرين ، وخرج لحراسةهذهالقافلة اكثرُ من ألفي شاب وفتاة من الحرس اليهودي المسلّـح ،جاءبعضهم من تل أبيب ، وبعضهم من

القدس، وكلّهم فى مصفحات ودبابات ، ومعهم الأسلحة الثقيلة، وقد ظنّوا أنهم بذلك سيؤَمّنون وصول القافلة سالمةً إلى القدس .

فلما وصلت القافلة إلى المكان المردوم من الطريق - وكان ذلك فى مكان عميق في ذلك الوادي الكبير ، بين الجبال العالية المغطاة بالأشجار الكثيفة - نزل الجنود المسلحون لازالة الحجارة من طريق القافلة، فانهال عليهم الرصاص من الجبال المتسلّطة على جانبي الطريق واشتركت في ذلك مدافع جيش الانقاذ التي كانت إذ ذاك في ذلك المكان ، عائدة من معارك القسطل .

واستمرّت المعركة يومين كاملين ، احترقت فيها جميع السيارات والمصفحات اليهودية ، بفعل القنابل التي انهالت عليها ، وتساقط شباب اليهود كأوراق الأشجار اليابسة ، وانتصر المناضلون العرب انتصاراً روّع اليهود، وجعل في كلّ بيت من بيوتهم مناحة كبيرة على مئات القتلى الذين ظلت جُثَثهم في الطريق طعاماً للوحوش والغربان .

القائد الشهيد عبد القادر الحسيني

قد يَسأل بعض القراء الصغار : مَن هو عبدُ القادر الحسيني هذا الذي روّع اليهود بهذا الشكل الرهيب ؟!

ونحن سنتحدّث بفخرٍ عن هذا القائد الفلسطيني الشهيد، لأن حياتَه سلسلةُ بطولاتٍ وتضحياتٍ ووطنية، نريد أن يتحلّى بها الطلاب منذ اليوم، وأنْ يُصمِّموا على أن يكونَ كلٌّ منهم في المستقبل القريب خَلَفاً لعبد القادر الحسيني، البطل الشهيد.



موسى كاظم الحسيني
(الزعيم الوطني الخالد، ووالد البطل الخالد عبدالقادر الحسيني)

عبد القادر الحسيني مجاهد فلسطيني عربي من القدس. كان أبوه موسى كاظم الحسيني زعيماً لفلسطين؛ وقد تعذّب أبوه كثيراً، وجاهد كثيراً في سبيل فلسطين، ثم توفي سنة ١٩٣٣ م متأثراً بجراحٍ كانَ قد نالها من أيدي رجال البوليس البريطانيين وهو يقود مظاهرةً وطنيـــة كبيرة في باب العمود في القدس، احتجاجاً على ظلم الحكومة الانكليزية.

وقد نشأ الابن ـ عبد القادر ـ وطنياً

مخلصاً مثل والده. ومنذ فجر شبابه كان يكره الانكليز - أعداء وطنه - وكان يَنتظِر اليوم الذي يستطيع فيه أن ينتقم منهم ومن أصدقائهم اليهود. فلما كانت الثورةُ الكبرى، سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٩م، انضمّ إلى المجاهدين. وفي معركة الخضر التي تحدّثنا عنها سابقاً، والتي استُشهِدَ فيها القائدُ سعيد العاص، أصيب عبدُ القادر بطعْنة في قفاهُ من «سنجةٍ» أحد الجنود الانكليز، ونُقِلَ الى المستشفى ثم غادر فلسطين بعد ذلك الى العراق.

وفي الحرب الأخيرة عاد ليقودَ أبناء فلسطين في حربهم ضد قوّات الظلم والعدوان. فألّفَ (فرقة الجهاد المقدس) ونظمَ منها فرقة التدمير التي كانت تعمل أعمال الفدائيين من وضع المتفجرات، ونسف العمارات والقلاع والمستعمرات والقوافل اليهودية. وكان يعمل معه عددٌ من القواد الفلسطينيين المخلصين، كان من أشهرهم الشهيد المرحوم إبراهيم أبوديّة، الذي دوّخ اليهودَ في معارك حي القَطمون في القدس، وفي مستعمرة رامات راحيل اليهودية على طريق القدس - بيت لحم. وسنعود قريباً لنتحدث عنه على حدة.

وكذلك كان من أكبر القواد الفلسطينيين الذين يتعاونون مع عبدالقادر، المجاهد الشيخ حسن سلامة، قائد المنطقة الوسطى الغربية في فلسطين في أثناء الثورة الكبرى، ثم في الثورة الأخيرة.

وقدْ روّع اليهودَ طويلاً في منطقة اللد والرملة ويافا ورأس العين، ثم استُشهد في رأس العين — بقرب اللد — بعد دخول الجيوش العربية إلى فلسطين .



عبد القادر الحسيني
(ضحى بكل ما يملك ، وأخيراً جاد بنفسه على قمة القسطل ، في سبيل فلسطين)

وكان عبد القادر الحسيني يُنفق من ماله الخاصّ على تسليح

جنوده المناضلين ،حتى باع أملاكه وأملاك زوجته ، وتحـمّل ديوناً كثيرة في هذا السبيل . وكان يَنتَظر من الدول العربية ، ومن الجامعة العربية ، ومن لجنة إنقاذ فلسطين في دمشق ، أن تُساعده بالسلاح لكي يحطِّم قوات اليهود ، ولكنّ الجميع كانوا يبخلون عليه بالمساعدة .

لقد كان لدى اليهود طائرات ومدافع وأسلحة رشاشة وثقيلة، ومصفحات ، ودبابات ضخمة ؛ أما هو فقد كان المناضلون الذين معه قليلي السلاح ؛ فلو كان لديه عددٌ من المصفحات والمدافع الثقيلة وحدها ، لقضى على كلّ أحلام اليهود . ولكنه ظلّ يطلب ـ والأموال مكدّسة في الجامعة العربية ، ولدى لجنة إنقاذ فلسطين ، باسم صندوق فلسطين ـ فلا يلقى جواباً من أحد .

وبينما كان مرةً في دمشق يُلِحُّ على لجنة إنقاذ فلسطين ـ ويَصحُّ الآن أن نسميها لجنة خراب فلسطين ـ بأن تقدِّم له بعضَ الأسلحة الثقيلة ، هجمَ اليهود بقوّاتٍ كبيرةٍ على قرية (القَسْطَل)واحتلّوها.

وأين تقع القَسْطل ؟

إنها قرية عربية صغيرة ، على رأس جبل عالٍ على طريق القدس ــ يافا . وكانت القوافلُ اليهوديةُ الآتيةُ من تل أبيب الى

القدس ، والذاهبةُ من القدس الى تل أبيب ، تمرُّ منها . ولكنّ المناضلين العرب ، بقيادة عبدالقادر الحسيني، كانوا قد منعوا مرور هذه القوافل ، وسدّواعليها الطريق عدةَ أسابيع . فأصبحت القدس محاصرةً من كل جهة . وأصبح يهود القدس لا يتلـقّون أية مساعدة أو مُؤَن من أية جهة . وكان المناضلون يستولون على كل قافلة يهودية تحاول أن تحمل المؤن والسلاح الى يهود القدس . فتضايق اليهود لذلك كثيراً وكاد الجوع يفتك بهم. ولذلك صـمّمت القيادة اليهودية على أن تسيطر على هذه الطريق الحيوية مهما يكلّفها ذلك من التضحيات والخسائر. فأرسلوا ألوفاً من شبانهم وبناتهم المحاربين الى قرية القسطل العالية ، واستولوا عليها ، لكي يسيطروا منها على طريق باب الواد القريبة ، فيؤَمّـنوا سير القوافل عليها .

فلما رأى المناضلون العربُ ذلك ، جعـلوا يحاولون أن يستردّوا القرية من أيدي اليهود . ولكنّ اليهود سرعانَ ماتحصّنوا فيها جيداً ، وجعلت رشاشاتهم وطائراتهم ومدافعهم المورتر تقذف المناضلين العرب بالنيران الحامية ، وتمنعهم من الاقتراب من القرية. وماذا تستطيع البنادق القديمة القليلة العدد وحدها أن تفعل أمام المدافع والطائرات والمصفحات الثقيلة ؟

لذلك استمرّت المعركة نحو اسبوع ، والعرب لا يستطيعون

ان يقتربوا من القرية . فبلغ الخبر إلى عبد القادر في دمشق ، فراح يُـلِحُّ على المسؤولين هناك بأنه لا أمل في الانتصار على اليهود بغير



صورة أخرى للبطل الشهيد عبد القادر الحسيني

المدافع والأسلحة الثقيلة . ولكن المسؤولين لم يردّوا عليه . فيـئس عبد القادر ، وعاد مُسرعاً الى القدس ، وقد بلغ منه الغضبُ مبلغاً عظيماً . ومضى حالاً الى ميدان المعركة عند القسطل ، فنـظّم المناضلين ، ومضى أمامهم يهاجم القرية هجوماً انتحارياً يائساً .

فتحمس المناضلون عندما رأوا قائدهم يسير أمامهم، ولم يعودوا يبالون بأية تضحية. فهجموا على القرية هجوماً عنيفاً، يريدون فيه الموت أو النصر. ودارت معركة هائلة طاحنة، لا رحمةَ فيها ولا توقف؛ حتى استطاع العرب بسلاحهم الضئيل أن يقضوا على اليهود المتحصنين فى القرية، ويعاودوا احتلالها من جديد في وسط الظلام الحالك.

لقد كسبوا المعركة بعد نضال مرير وتضحيات كبيرة، ولكنهم خسروا خسارةً عظيمة؛ فقد سقط القائدُ البطلُ شهيداً فى قلب الميدان بعد أن سبقَ جميعَ رفاقه الى داخل القرية، وهاجمَ اليهود برشاشه وقنابله اليدوية فى أحصن مكان في قلبها، وهناك سلط عليه أحد اليهود مدفعاً رشاشاً، فمزّق صدره بالرصاص.

وهكذا انقلب انتصار العرب الى مأساة، لأنهم خسروا العقلَ الموجِّهَ في معاركهم، والبطلَ الأمين المخلص الذي عوّدَهُم دائماً أن ينتصروا في كل معركة.

فلنتذكر دائماً القسطلَ، على طريق القدس - يافا؛ ولنتذكر دائماً المعركةَ التي خاضها فيها عبدُ القادر الحسيني، وانتصر فيها انتصارين باهرين، هما: الاستشهاد، وهزيمة اليهود؛ هذه المعركة يجب أن نخوضها نحن أيضاً في يوم قريب، لنَهزمْ فيها أعداء

وطننا من جديد كما هزمهم عبد القادر ، ولو كان ذلك يكلّف استشهاداً كاستشهاد عبد القادر الحسيني .

إن علينا أن نبني بأيدينا على رأس القسطل تمثالاً لعبد القادر، يُمثّل البطولةَ والإيمان والتضحية ، لكي يبني لنا أبناؤنا بعد ذلك تماثيلَ البطولة والإيمان والتضحية ، مثل عبد القادر الحسيني ، ومثل رفاق عبد القادر الحسيني .

دماء في كل مكان

لقد تحدّثنا كثيراً عن القدس وضواحيها ، فلننتقل إلى غير منطقة القدس ، فان كل مدينة وقرية في فلسطين قد جاهدت وضحّت كثيراً كالقدس، لقد جاهدت يافا جهاد الأبطال، وصمدت في وجه أكبر مدينة يهودية ـ تل أبيب ـ صموداً رائعاً مدهشاً . ولقد جاهدت حيفا كذلك ، وأذاقت اليهود كثيراً من الأهوال على الرغم من أن اليهود يقيمون في الأحياء المرتفعة المشرفة على الأحياء العربية . وكذلك جاهدت عكا ، والطيرة ، والناصرة ، وطبريا ، وسمخ ، وصفد ، وغزة ، والخليل ، وطولكرم ، وجنين ، وقلقيلية ؛ وكل مدينة أو قرية أخرى في فلسطين كلها .

قرية سلمة

فلنتحدث أولاً عن قرية صغيرة اسمها (سَلَمة) تقع بالقرب من تل أبيب، وتحيط بها المستعمرات اليهودية من كل جانب.

حينما صدر قرار هيئة الأمم الظالمُ بتقسيم فلسطين، في أواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ جعل اليهود يرقصون ويفرحون، كأنما سكروا بخمر الانتصار لتحقيق حلمهم الذي رافقهم أجيالاً طويلة. وكان أول حوادث عدوانهم على العرب بالقرب من قرية سلمة، فقد غدروا بفتاة من أهلَ القرية في إحدى البيارات في تل أبيب، فغضب أهلُ القرية، واستعدوا للجهاد المسلّح، وتسلّم القيادة رجل منهم اسمه موسى أبو حاشية.

لقد كان موسى هذا قائداً بارعاً، وكان هو وجميع أهل سلمة أبطالاً — حيّاهم الله — فأسرعوا إلى التسلح. ونظّمهم موسى للحراسة والدفاع عن القرية، على الرغم من قلّة عددهم وصعوبة مركزهم بين المستعمرات اليهودية. ولم يكن عدد الرجال المسلّحين

في القرية أكثر من مئة وخمسين مجاهداً ، ومع ذلك فقد استطاعوا أن يصمدوا في وجه تل أبيب خمسة أشهر ببطولةٍ عظيمة لا يمكنُ أن يرويَ التاريخُ أعظم منها .

لقد كان اليهودُ يهاجمونهم ألوفاً ، ومعهم الرشاشات والمدافع ، ثم يرجعون بأعداد كبيرة من القَتلى والجَرحى . وفي إحدى المرات لَحَقهم مجاهدو سلمة إلى قلب (هاتكفا) — وهي من أكبر ضواحي تل أبيب — واحتلّوها وأقاموا فيها يقتلون ويدمّرون ، واليهود يفرّون من أمامهم مذعورين صائحين . ثم لجأ اليهود إلى الجيش البريطاني يطلبون منه الحماية ، فجاء البريطانيون وأخرجوا العرب من هاتكفا ، وأعادوا أهلها اليهود إليها .

فماذا حَدَث بعد ذلك ؟

لقد تآمر اليهود والجيش البريطاني المرابط في معسكرات قريبة من تل أبيب ، على أن يشتركوا معاً في مهاجمة قرية سلمة وتدميرها في ليلة واحدة . وفعلاً قامت قوة من الجيش البريطاني من معسكر قريب (اسمه معسكر تل لتفنسكي) واشتركت مع القوات اليهودية في تطويق القرية . غير أن المجاهدين المرابطين فيها

كانوا مستعدين لهذا الهجوم ، لأن فتاة عربية مسيحية من موظفات المعسكر كانت قد علمت بالمؤامرة ، فأخبرت أهل سلمة بأمرها لكي يحتاطوا لها ، وبذلك أنقذت القرية من التدمير في تلك الليلة .

وحينما وقع الهجوم ، استطاعت القرية العربية الصغيرة أن تصمد له ، وان تخدع القوّات الكبيرة المهاجمة ، ثم تُفجّر الألغام في طريقها ، وتهاجمها بعد ذلك مهاجمة عنيفة ، فـتُـبَـدّ دَ شملها تبديداً سجّل اسم قرية سلمة في سجل البطولات الخالدة .

وقد ظلّت هذه القريةُ الجبارةُ تجاهدُ وتصـمُدُ لغدرات اليهود والجيش البريطاني ، مدةَ خمسة أشهر ، حتى لم يـعُد في وُسـعِها أن تستمرّ ، حينما احتلّ اليهود جميع القرى العربية القريبة منها ، ولم يتركوا لها مجالاً للبقاء . عندذلك أصبحت القرية محاَصرَةً ومهدّدة بخطر التدمير وإبادة السكان . فاضطرّ المناضلون الأبطال الى أن يُخرجوا النساء والشيوخ والأطفال من القرية ؛ ثم يهجروها هم بعد ذلك في أواخر شهر نيسان سنة ١٩٤٨م ، بعد أن كانت يافا ، وطبريا ، وحيفا ، وبعض القرى الأخرى قد سقطت في أيدي اليهود .

دير ياسين

***

وهل نتحدث أيضاً عن دير ياسين ؟

لعلّ الكثيرين قد سمعوا بمأساة دير ياسين ، ولكنهم لا يَعرفون أن هذه القرية لم تسقط بسهولة ، بل دافعت دفاع الأبطال الجبابرة حتى اللحظة الأخيرة ، ثم سقطت سقوط الأبطال لا الجبناء.

إن الذين يتحدّثون عن مأساتها ، ولا يذكرون شيئاً عن بطولة أهلها ، إنما يذكرون الجزء المؤلم من الحقيقة ، ويُخفون الجزء الذي يبعثُ على الفخر منها ،

ان قرية دير ياسين قريةٌ صغيرة جداً في ضواحي مدينة القدس ، تحيط بها المستعمرات اليهودية من كل جانب ، ومع ذلك فقد صمدت وحدها أمام القسم اليهودي الكبير جداً من القدس ، وجميع المستعمرات اليهودية الأخرى المحيطة بها ، وقاومت جميع هجماتها ببطولة عظيمة . وقد اشترك كثير من شبانها في معركة القسطل الكبرى ، وكانوا شوكةً حادةً في حلوق اليهود ، حتى اليوم التاسع من شهر نيسان سنة ١٩٤٨م ، وهو اليوم الذي كانت فيه القدس تشيّع جنازة القائد الشهيد عبد القادر الحسيني بعد انتصاره واستشهاده في معركة القسطل بيومٍ واحد .

في ذلك الحين رأى اليهود أن وجود قرية دير ياسين في وسط

مستعمراتهم يضايقهم كثيراً ، ويجعلهم في خوف دائم من المباغتات فجمعوا في الليل أُلوفاً من أشرس جنودهم المسلّحين بمدافع الهاون والرشاشات الثقيلة ، ومضوا في مصفحاتهم لمهاجمة القرية الصغيرة الباسلة ، وراحوا يضربونها بمدافعهم ورشاشاتهم من الساعة العاشرة ليلاً الى الثانية صباحاً ، وأبناء القرية بسلاحهم القليل يردّون عليهم ويصمدون ببطولة لهجومهم العنيف ، وللقنابل المتساقطة عليهم بجنون ، ويدافعون عن قريتهم ببسالة الأبطال المؤمنين ، ولا يسمحون للأعداء بالتقدم داخل قريتهم ، واستمرت المعركة حامية مدة أربع ساعات كاملة ، واليهود لا يستطيعون أن يتقدموا شبراً واحداً داخل القرية .

ولكن ماذا يُنتظر من قرية صغيرة ، لم يكن عدد المناضلين فيها في تلك الليلة يزيد على الخمسين رجلاً ، ولم يكن لديهم سلاح كافٍ للمقاومة الطويلة ؟

لقد دافع أبناء القرية الأبطال حتى نفد كلُّ ما كان لديهم من الرصاص والقنابل ، ولم يعد من الممكن أن يستمرّوا في المقاومة . فلما تأكّد اليهود من أن ذخيرتهم قد نفدت كلها ، دخلوا القرية بسهولة بعد الساعة الثانية صباحاً ، وراحوا يفتكون بأهلها بدون رحمة . ولم تكن المذبحة الهائلةُ التي أجروها في القرية الا انتقاماً من أهلها ، لبطولتهم في الصمود للقوات اليهودية الكبيرة .

معركة الشيخ جراح

لقد وقعت مذبحة دير ياسين في ٩ نيسان ، ولكنَّ عرب القدس قد استطاعوا أن ينتقموا لها ، بعد أيام قليلة ، انتقاماً جعل يهود العالم كلّه يصابون بهزّةٍ عظيمة ، وجعل يهودَ القدس وفلسطين كلها يصابون لها بشبه جنون .

فكيف كان ذلك ؟

في صباح يوم ١٣ نيسان ـ أي بعد مذبحة دير ياسين بأربعة أيام فقط ـ كانت قافلةٌ يهودية تحرسها السيارات المسلّحة ، ذاهبةً من الأحياء اليهودية إلى الجامعة العبرية ومستشفى هداسا على جبل الطور. وكان لا بدَّ لها من أن تمرَّ بالأحياء العربية في الشيخ جرّاح. وقد علم المناضلون من فرقة الجهاد المقدس بأمرها ، فتحصّنوا من الصباح الباكر في أماكن على جانب الطريق التي ستمرّ منها القافلة المصفحة ، ولغموا الطريق أمامها. فلما جاءت القافلة ، انفجرت الألغام تحت سيارة الحراسة التي في المقدّمة. وعند ذلك انصبّت نيران المناضلين على القافلة كلها ، فلم يعد يمكنها أن تتراجع أو أن

تتقدّم ؛ وراحوا يقذفونها بالقنابل المتعدّدة . وتسلّل بعضُ الفدائيين إلى القافلة زحفاً على بطونهم ، تحت الرصاص المنهمر من الجانبين ، ووضعوا تحتها المتفجرات ، فاحترق عدد من السيارات المصفحة بمن فيها من الركاب . واستمرّت المعركة إلى ما بعد الظهر ، ثم جاء جنود الجيش البريطاني — كالعادة — لينقذوا من أمكن إنقاذهم من القافلة .

وكانت النتيجة أن الذين احترقوا وقُتلوا في تلك المعركة زادوا على ٨٥ شخصاً ، وزاد عددُ الجرحى على الأربعين ، وجميعُهم من كبار الأطبّاء والأساتذة والعلماء اليهود العالميين . وكان بينهم مدير مستشفى هداسا ، وهو طبيب عالمي ذو شهرة واسعة في العالم ، والباقون من العلماء والأساتذة الذين كانوا يدرّسون ويعملون في مختلف فروع الجامعة العبرية .

لقد كان انتقاماً رائعاً لمذبحة دير ياسين ، أحسَّ به يهود العالم كله إحساساً بليغاً جداً ، وبكوا له بكاءً طويلاً .

بطولات أخرى

ثم هل نتحدث على قُرى (الطيرة ـ وإجزِم ـ وعين غزال) ؟

إنها ثلاث قرى صغيرة على مقربة من حيفا . ولكنها ظلّت تقاوم اليهود ببطولة عظيمة ،وليس ذلك أثناء وجود الانكليز في فلسطين فحسبُ ، بل بعد دخول الجيوش العربية أيضاً . وظلَت هذه القرى أشواكاً مزعجة في جنوب اليهود، تفتك بقوافلهم ، وتنهك قواهم .

وبعد أن توقفت الجيوش العربية عن حرب اليهود ، واستسلمت إلى الهدنة ، وَجَد اليهود الفرصةَ مناسبةً للانقضاض على هذه القرى الثلاث . فهاجموها بالطائرات والدبابات والمدافع، ولكنها ظلَّت تدافع وتقاوم أعنف مقاومة حتى دُمِّرت القرى الثلاث تدميراً تامّاً ، فاضطرّ من بقي من أهلها الى النجاة بأنفسهم فى حالة شديدة من البؤس والكآبة .

فهل من بطولاتٍ أعظم من هذه كلها ؟

لو أردنا أنَ نتحدث عن جهاد كلّ قرية وكلّ مدينة في فلسطين ،لاحتجنا الى كتب كثيرة ضخمة . والحقيقة أن عرب

فلسطين كانوا ابطالاً جبابرة، ولو وَجدوا مَن يساعدهم بتقديم السلاح الكافي وحده، لما ضاعت فلسطين.

وهذا دليل على البطولة الجبارة:

لقد كان الفلسطينيون لا يملكون من السلاح غيرَ البنادق، وغير عدد قليلٍ من الرشاشات والقنـــابل؛ وكانوا يدفعون ثمن السلاحِ القليل غالياً جداً مِن ثمنِ قُوتهم وغذاء أبنائهم، ولم يكن لديهم طيارة واحدة، ولا كَان لديهم مدافعُ ثقيلة، ولا دبابات حربية، ومع ذلك، ومع أنّ اليهودَ كانوا يملكون من السلاح كلّ ما يريدون، وكان لهم جيوشٌ منظّمة مدرَّبة، مع ذلك صَمَد الفلسطينيون أمامَهم وأمامَ جيشِ صديقتهم بريطانيا المُدافع عنهم مدةَ خمسة أشهرٍ متوالية. ولم يكتفوا بالصمودِ وحده، بل كالوا الضربات الحَامية لكليهما في معاركَ عديدةٍ، في القدس، وحيفا، ويافا، وسَلَمه، والطيرة، وطريق الخليل، وطريق غزّة، وفي صفد، وطبريا، وبيسان، وفي كلّ مكان آخر. لقد صمـدوا كلّ هذه المدة، وانتصروا كثيراً في كلّ هذه المدة، وأذاقوا اليهودَ الأهوالَ الشديدة وهم بلا سلاح، وبلا نظام أو تدريب. ولم يخسروا المعارك في ميادين القتال، بل خسروا بلادهم في ميادين السياسة، لأن السياسيين هم الذين باعوا البلاد وباعوا دماء الشهداء بدون ثمن.

ولما تدخّلت الدولُ العربية السبعُ ، بطائراتها ودباباتها ومصفحاتها ومدافعها ، وجيوشها النظامية التي أطبقت على فلسطين من الشمال والشرق والجنوب ، لم تصمد أمام اليهود أكثر من شهر واحد ، ثم وقفت تتنفّس ... بالهدنة الأولى ، ثم بالهدنة الثانية . وبالهدنة الدائمة سلّمت إلى اليهود من أراضي فلسطين ما أرادوا ، رغماً عن عرب فلسطين .

ولم يكن هذا التسليمُ بسبب ضعف الجيوش العربية ، فقد كانت قادرةً في اسبوع واحد أن تُريحَ الدنيا من اليهود ومن دولة إسرائيل ، ولكنّ ذلك وقع لأن زعماء الدول العربية حينذاك استسلموا إلى إرادة بريطانيا وأميركا وهيأة الأمم — وهؤلاء أعدى أعداء العرب — وهكذا عاشت عصابات إسرائيل في أرض العرب ، وتشرّد عرب فلسطين في الأرض كلها بدون وطن ، وبدون مأوى ، وبدون مصدر للرزق .

ففي عهد جيوش الدول العربية وقعت مأساة اللدّ والرملة ، وكان تشرّدُ سكانها مُريعاً جداً ، ووقعت مأساة قلقيلية وطول كرم وجنين ، والمنطقة الشمالية من فلسطين كلها ، فقد خسرت كلّ أراضيها الخصبة في معاهدةِ رودس ، مع أنها لم تخسر شبراً واحداً من أرضها قبل دخول الجيوش العربية . وكذلك وقعت

مأساةُ المجدل، وبئر السبع، والفالوجة، في منطقة غزة، فسقطت في أيدي اليهود هي وجميع القرى العربية منها.

ويجب أن نقول الحقيقة مرة ثانية ههنا إنصافاً للجيوش العربية، وللجنود المحاربين؛ فلقد كان كلٌّ جيش من الجيوش التي دخلت إلى فلسطين كافياً وحدَه لازالة اليهود من فلسطين، لو سمحت له الدول العربية بالعمل. ولكن كان الضعفُ وراء الجيوش في ميادين السياسة، لأن أميركا وبريطانيا كانتا تفرضان سلطتهما ونفوذهما على الدول العربية، فتمنعانها من تحريك جيوشها كما تتطلب الكرامة والشهامةُ العربية. وهكذا ضاعت فلسطين، وقامت دولة إسرائيل، وأصبحت تعتدي كلَّ يوم على مناطق نفوذ الدول العربيه في فلسطين، فلا تَجدُ من يؤدّبها ويزيلها من الوجود. ولكنَّ الأملَ في إزالتها من الوجود معقودٌ على أجيالنا الناشئة في الغد القريب، لأن زعماء اليوم في البلاد العربية سينتهي زَمَنُهم حين يجيء زمن الأجيال الجديدة للزعامة ولقيادة الجيوش، ولتحرير العرب من نفوذ الأعداء الأجانب. فلْيُوَطِّنْ كل منهم نفسه من اليوم على هذه العقيدة، وليستعدّوا لها كل الاستعداد، ولْيُقسم كلٌّ منهم أن يكون الزعيمَ الأمين، والسياسيَّ المخلص، والجنديَّ

الوفيّ لأمته العربية وحدها ، ولبلاده العربية وحدها ، والعدوّ العنيدَ المُرّ لأعدائها . وهم يعرفون أعداء أمتهم جيداً .

إن بريطانيا هي التي جاءت باليهود الى فلسطين ، وهي التي مَنَحتْهم أراضي العرب، وسلَّحتهم ، وانشأت منهم جيشاً مدرّباً ثم سلمتهم البلاد عند خروجها منها ، تسليماً غادراً .

وأميركا هي التي ساعدتهم بنفوذِها في هيأة الأمم حتى أقامت دولتهم في وطننا العربي ، ثم راحت تقدّم لهم الأموال والسلاحَ لتقوِّيهم . ولا تزال تقدّم لهم مئات الملايين من الدولارات لتقويتهم وتسليحهم ، وتبذل كلَّ نفوذها لحمايتهم وإضعاف الدول العربية أمامهم .

ومن المؤسف جداً أنَّ الجيوش العربية حين دخلت إلى فلسطين ، جرّدت أهلها من السلاح ، وأبعدتهم عن ميادين القتال، بحجةِ أنهم خَوَنَة . وبذلك حَمت اليهود من الانتقام، بدلاً من أن تنتقم منهم للعرب المظلومين ، وقدّمت الدول العربية لليهود أجود الأراضي العربية في معاهدات الهدنة الجائرة .

البطل الشهيد ابراهيم أبو ديّة

والآن لنتحدث عن بعض الأبطال الذين عرفتهم ميادين فلسطين ، وعن بعض البطولات التي أظهروها ، لنؤكدَ أن الفلسطينيين لم يكونوا خَوَنَة - كما اتّهمهم البعض ظلماً - وإذا وُجِدَ بينهم عددٌ من هؤلاء الخَوَنَة ، فكما يوجَدُ مثلُهم في كلّ أُمة أُخرى ، بين الذين ماتت ضمائِرُهم وفضّلوا الربحَ العاجل على الوطن والكرامة .



إبراهيم أبو دية
(فتك بالعصابات اليهودية في عشرات المعارك
ثم مات بعيداً عن أرضه

سنتحدّث أولاً عن البطل (إبراهيم أبو ديّة) . لقد ذكرناه في الصفحات السابقة ، وروينا بعضَ أعماله . ونذكر الآن أنه من أبناء قرية (صوريف) بقرب الخليل ، وقد اشترك في أعمال الجهاد والبطولة منذُ الثورة الفلسطينية الكبرى (٩٣٦-٩٣٩) ثم لما عادت الثورة الى الاشتعال في أواخر سنة ١٩٤٧ ، كان إبراهيم أبو ديّة مستعدّاً ليضحّي بروحه في سبيل وطنه المهدّد بالخطر اليهودي

وفي هذه المرة كان إبراهيم بين قُوّاد الثورة ، كما كان مسؤولاً عن شحن الأسلحة من سوريا وغيرها الى فلسطين ، وتوزيعها على ميادين الجهاد . وكان مستودع الأسلحة في قريته (صوريف) . وفي إحدى المرات كان إبراهيم مع جماعة من أعوانه هناك ، فأحسوا بحركات مريبة ، ثم وجدوا أن هناك نحو خمسين يهودياً يتسللون لنجدة مستعمرة كفار عصيون اليهودية القريبة .

فخرج أبو دية وجماعته من مكمنهم ، واشتبكوا معهم في معركة طاحنة ، وفتكوا بهم جميعاً ، فلم يسلم منهم أحد .

ومما يُذكر أن اليهود كانوا قبل ذلك قد اغتالوا طبيب مستشفى الأمراض العقلية العربي في بيت لحم ، واسمه الدكتور مخائيل معلوف ؛ فلما فتك أبو دية ورجاله باليهود الخمسين في صوريف ، حملوا جثثهم الى بيت لحم ، وقدموها الى زوجة الطبيب القتيل ، وقالوا لها : لقد ثأرنا لزوجك بقتل هؤلاء جميعاً .

وكان ابراهيم أبو دية من أهم مساعدي القائد عبد القادر الحسيني ، وقد اشترك معه في معارك كثيرة ، أهمها معركة القسطل .

في معركة القسطل كان ابراهيم يقود المجاهدين الفلسطينيين أثناء غيبة عبد القادر في سوريا . فلما عاد عبد القادر تسلم القيادة بنفسه ، وراح ابراهيم يعاونه في إدارة المعركة العنيفة . وحينما

سقط عبدُ القادر في الميدان شهيداً ، كان ابراهيم قد أصيب هو أيضاً بجراح ، ولكنه لم يُبالِ بجراحه ، بل اندفع كالأسد الهائج الى قلب الميدان ، وأنقذَ جثةَ قائده الشهيد .

وبعد وفاة عبد القادر كان ابراهيم أبودّية هو أبرز قائد للمجاهدين الفلَسطينيين في منطقة القدس والخليل كلها .

وكان حيُّ القطمون العربي الجميل ، في القدس الجديدة ، مهدّداً بخطر الهجمات اليهودية المتلاحقه . وهذا الحيّ من أهمّ الأحياء العربية ، وأجملها في القدس ، وهو محاط من الخلف بحيٍّ يهودي كبير جداً اسمه (رحافيا) ، ومن الأمام بحيّ يهودي آخر كبير اسمه (ميكور حاييم) وكان اليهود يهاجمونه في كل ليلةٍ تقريباً لكي يستولوا عليه . فتسلّم إبراهيم أبودّية قيادة المجاهدين فيه ، وصار في كل هجمة يهودية يُوقعُ باليهود مئات الاصابات .

وعلى الرغم من أنه لم يكن في ذلك الحيِّ أكثرُ من سبعين مجاهداً مسلّحاً ، فان اليهود كانوا في كلّ مرةٍ يهاجمونه بالمئات ، وفي الأيام الأخيرة صاروا يهاجمونه بالألوف . وفي بعض الأحيان كانت تزيد خسارُتهم على ثلاثمئة قتيل .

وقد أُصيب ابراهيم عدة مرات ، وفي احدى المرات هرب من المستشفى الفرنسي في بيت لحم بثياب المرَض، وجراُحه لم تبرأ

بعد ، لكي يشترك في معركة عنيفة في قريته صوريف . وقد استطاع أن يخرج اليهود منها ، ويعيدها الى أهلها من جديد ، ثم عاد الى المستشفى .

واخيراً يئس اليهود من صمود مجاهدي القطمون ، وأرادوا أن ينتهوا من مقاومتهم ، فهاجموا الحيّ بأكثرَ من ثلاثة آلاف جندي ، وظلوا يضربونه بالمدافع والرشاشات ، الى أن تمكنوا من احتلال الدير الكبير الذي في رأس الحيّ ، فأصبح الحيُّ مطوّقاً من أكثر جهاته .

وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع ابراهيم أبو ديّة ورجالهُ الشجعانُ أن يُخرجوا اليهودَ من الدير ، بعد مذبحة هائلة بالسلاح الابيض ، وأن يسترجعوا الدير منهم . فثار اليهود لذلك ، وعاودوا الهجوم على الدير بجموع كبيرة . وبعد معارك عنيفة ، استمرّت عدةَ أيام ، استطاعوا أن يعاودوا احتلاله ، ويتغلّبوا على المجاهدين العرب القلائل :

واستمرّت المعارك عنيفةً هائلة ، فلم يستطيع المجاهدون بسلاحهم الضعيف القليل أن يصمدوا في وجه الألوف من الأعداء المهاجمين ، والسلاح الثقيل الذي يهاجمونهم به ، فاضطروا الى التراجع أمامهم : ولما أراد بعضُ رجال الجيش العربي ، الذين

كانوا يحرسون المفوّضيةَ العراقية في الحيّ، أن يوقفوا تَقَدُّمَ اليهود، وقفَ الجيشُ البريطاني في وجههم ومَنَعَهم من مقاومة اليهود :

وهكذا تمَّ للبريطانيين تسليمُ الحيّ العربي الجميل الى اصدقائهم اليهود، وتشريد اصحابه العرب عنه .

وعند ذاك انسحب ابراهيم ابو ديّة الى منطقة القدس الجنوبية، على طريق بيت لحم . ومن هناك راح يهاجم المستعمرات اليهودية الجنوبية ،وعلى الأخص مستعمرة (رامات راحيل) في الطرف الجنوبي الغربي من القدس . وقد ذاقت هذه المستعمرةُ وجارتها (تلبيوت) أهوالاً كثيرةً من هجمات ابراهيم ورجالهِ المتواصلة عليهما

وظلَّ ابراهيم يقود المناضلين هناك الى ما بعدَ دخول الجيوش العربيه الى فلسطين، وفي أكثرَ من مرة استطاعَ هوَ ورجاله أن يصلوا الى قلب المستعمرة، ويدمّروا أبراَجها وبعضَ بيوتها .

وأخيراً أُصيب ابراهيم في عموده الفقريّ ،فلم يعد يستطيع مواصلةَ الجهاد، وتلا ذلك توقّفُ الجيوشِ العربية عن محاربة اليهود،فلم يَعُد ابراهيم يأملُ في أن تخلِّصَ جيوش العرب بلادَه الحبيبةَ من الاحتلال اليهودي. فَحَمَلَ معهُ آلامَه وجراحَه وغادرَ فلسطين الى لبنان .

وفي لبنانَ عاشَ البطلُ الجريحُ مقعداً نحو خمسِ سنوات، يتحمّل آلام الجراح بصبرٍ ورضى حتى ذهبَ الى لقاء ربه، حزيناً على مصير وطنه المظلوم، وراضياً بالشهادة التي نالها في صراع أعداء الوطن. وكانت وفاته في ١٩٥٢/٣/٦ وقد كانت جنازته من أعظم الجنازات التي شهدتها مدينة بيروت.

ولقد عرَفت وزارةُ المعارفِ الأردنيةُ قدرَ هذا البطل الشهيد، فأكرمت بطولته، وخلّدت ذكره، بأن أطلقت اسمه على إحدى مدارس وطنه الخليل. فهُناك مدرسةٌ اسمها (مدرسة ابراهيم أبو ديّة). وهذا عملٌ جليل تقومُ به وزارة المعارف تمجيداً لذكرى أبطال الوطن.

القائد الشهيد حسن سلامه

وتحدّثنا كذلك في بعض الصفحات السابقة عن بطل آخر اسمه الشيخ حسن سلامه. ونزيد الآن من الحديث على هذا البطل الفلسطيني ما يلي:

أول مرة اشترك فيها حسن سلامه في الجهاد كانت في عام ١٩٣٦، حينما هبّت قريته (قُولَه) - بالقرب من يافا - في وجه

الجيش البريطاني واليهـود ، لتدافعَ عن حريتها وكرامتها ، وكان حسن سلامـــه على رأس مجاهديها . وقد وقع اول اشتباك لهمع البريطانيين في مكان اسمه (رأس العين) بالقرب من اللد . ومضى بعد ذلك يناضلُ ببطولةٍ وإخلاص حتى انتهت الثورة . ثم كان حسن سلامه بعد ذلك بين القادة والزعماء الفلسطينيين الذين غـادروا بلادهم الى العراق ، لئلا يقعوا



الشيخ حسن سلامه

(شهيد رأس العين — مات وهو يرى الجيوش العربية تطوق تل ابيب ، ولكن ...)

في أيدي الحكومة فتعـلّقهم علي أعواد المشانق. ومن العراق ذهب الى ألمانيا ، ودخل مدرسة عسكرية فيها ، فتخرّج منها مدرّباً على الأعمال الحربية ، ولا سيما أعمال المظلات .

وقبل أن تنشب الثورة في فلسطين سنة ١٩٤٧ عاد حسن سلامه بالطائرة الى بلاده ، وهبط بالمظلة بقرب بحر الميت هو وزميلهُ المجاهد ذوالـكـفل عبداللطيف . وظلّ يعيش متخـفّياً حتى قامت الثورة ، وعند ذاك تسـلّم حسن قيادة المجاهدين الفلسطينيين في

المنطقة الوسطى الغربية من فلسطين. واليهودُ يذكرون كيف كان حسن سلامه ورجالهُ المجاهدون الأبطالُ يُنزلون بهم الضربات القاتلة في كل معركة يلاقونهم فيها.

وقد اشترك حسن سلامه ورجاله في معركـة القسطل التي استُشهِـد فيها صديقه عبد القادر الحسيني. وبعد استشهاده تسلم حسن قيادة المعارك التي ظلت مستمرة في القسطل وفي باب الواد، وانتقم لصديقه الشهيد من اليهود انتقاماً عظيماً في معاركه تلك.

ثم عاد الى منطقته في جهات رأس العين، وظلّ يجاهد هناك حتى دخلت الجيوشُ العربية الى فلسطين، فاشترك معها في قتال اليهود في قلب منطقته، حتى استُشهِـد وهو يدير معركة حامية في رأس العين نفسها. وفي ذلك الحين كان الجيشان الاردني والعراقي يطوّقان تل ابيب اليهودية، ويقذفانها بالنيران الحامية.

كان ذلك في أواخر شهر أيار سنة ١٩٤٨؛ ولم يعشْ حسن سلامه ليرى كيف عاد الجيشان القويان فانسحبا من مكانيهما، وسمحا لاسرائيل بالحياة على حساب وطنه الشهيد. ومات في ٣ حزيران سنة ١٩٤٨ في مستشفى الهلال الأحمر في الرملة ودُفن في قريته (قوله).

الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود

ولو أردنا أن نتحدّث على جميع الأبطـــال والشهداء الفلسطينيين لاحتجنا الى عشرات الكتب . ولكننا سنكتفي الآن بثلاثة شهداء آخرين من الفلسطينيين هم : عبد الرحيم محمود وعارف نعمان ، وفيصل رشيد الطاهر .



عبد الرحيم محمود
(شهيد الشجرة — شاعر كان أحلى قصائده استشهاده)

الأول من هؤلاء الشبان الشهداء من قرية عنبتا ، بالقرب من نابلس وهو قروي صافي النفس، كريم الخلق، شهم تلـقّى دراسته في كلية النجاح الوطنية في نابلس فنشأ شاعراً قويّ الشاعرية ، كما نشأ طموحاً، يحبّ وطنه ، ويعمل بكل قوّته لأجل مجده .

وبعد أن أنهى دراسته اشتغل بالتدريس . واتّصلت الصداقة القوية بينه وبين شاعر فلسطين ابراهيم طوقان. وكان ابراهيم ينظم الشعر الوطنيّ الحارّ ، وكثيرون من الطلاب يحفظون شيئاً

من شعره، مثل قصيدة (الفدائي) أو قصيدة (الشهيد) فهما في كتب المحفوظات التي يدرسونها. ولعلّ بعضهم يعرفون له قصائدَ أخرى غيرَ هاتين القصيدتين.

وصار عبد الرحيم محمود ينظم كذلك الشعر الوطنيّ الحارّ، يعلّمُ به طلاّبَه حبّ الوطن، وحُبَّ الجهاد في سبيل حرية الوطن. ولعلَّ الكثيرين يعرفون قصيدته المشهورة بعنوان (الشهيد) التي يبدأها هكذا:

سأحملُ روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الرَّدى
فإمّا حياة تَسُرُّ الصديق ... وإمّا مماتٌ يَغيظ العدى
وما العيشُ؟ لا عشتُ إن لم أكن ... مَخوفَ الجنابِ حرامَ الحمى
إذا قلت أصغى لي العالَمون ... ودوّى مقاليَ بين الورى
ونفسُ الأبيّ لها غايتان: ... ورودُ المنايا ونيلُ المنى
لَعَمرُكَ إني أرى مَصرعي ... ولكن أغذُّ إليه الخُطى
أرى مقتلي دون حقي السليب ... ودون بلادي هو المبتغى

هذا قِسمٌ من أوّل القصيدة وهي قصيدة حارةٌ جداً في حماسها، وفي وطنيتها، وفي صدق رغبة صاحبها في الجهاد. ولكن متى نظم هذه القصيدة؟

لقد نظمها عبد الرحيم وهو يحمل بندقيته في رؤوس الجبال مع المجاهدين ، في ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦ ـــ ١٩٣٩) ، وكان صادقاً وهو يقول فيها :

(سأحمل روحي على راحتي وأُلقي بها في مهـــاوي الردى)

فقد كان كلُّ مجاهدٍ حينذاك حاملاً روحه على كـفّه ، يترقب الموت بين معركة وأخرى . ولكنّ عبد الرحيم لم يَـمُت في تلك الثورة ، بل عاش بعدها ، وتشرّد حيناً في العراق مع المجاهدين الذين هربوا في أواخر الثورة . وهنـاك دخل المدرسة الحربيـة ، وتدرّب على الجندية .

وفي سنة ١٩٤١ نشبت ثورةٌ كبيرة في العراق للتخـلّص من الاستعمار البريطاني . وكان الذي قام بهذه الثورة هو السيد رشيد عالي الكيلاني ، وقد اشترك معه فيها عدد كبير من أحرار العراق ، كما اشترك فيها عدد من المجاهدين الفلسطينيين الموجودين في العراق ، وكان من بين هؤلاء شاعرنا المجاهد عبد الرحبم محمود .

كانت الحرب العالمية حينذاك مستعمرةً في كل مكان وكان الألمان يحرزون انتصارات متوالية في افريقيا الشمالية ، وكان قائدهم روميل يدخل أرض مصر ، والجيوش البريطانية تفرّ من أمامه مذعورة ، متراجعة عن ميادينها . فرأى رشيد عالي وأحرارُ العراق

أن الفرصة سانحة للتخلّص من الاستعمار البريطاني البغيض، فقامت الثورة العراقية التي ندعوها الآن (ثورة رشيد عالي). غير أنّ هذه الثورة لم يقدَّر لها النجاح. ولذلك خرج رشيد عالي مشرّداً من العراق، وأقام لاجئاً في الحجاز الى الآن. وخرج الفلسطينيون الذين اشتركوا معه هاربين خشيةً من انتقام الانكليز وكان عبد الرحيم بين الفلسطينيين الذين غادروا العراق حينذاك عائدين الى وطنهم.

وعاد عبد الرحيم بعد ذلك الى التدريس في كليـــة النجاح الوطنية، وعاد ينظم الشعر الجميل، ويبثّ في طلابه حب الحرية والجهاد، وروحَ الاخلاص للوطن.

وحينما نشبت الثورة الأخيرة في فلسطين، في شهر كانون الأول عام ١٩٤٧، عاد عبد الرحيم من جديد الى ميدان الجهاد، وترك صفوف التدريس الى صفوف القتال. واستمر يناضل ببطولة في الميادين الشمالية مع المتطوّعين في جيش الانقاذ، حتى دخلت الجيوش العربية الى فلسطين، وتولّى جيشُ الانقاذ القتال في المنطقة الشمالية الوسطى، وجعل مركز قيادته في مدينة الناصرة، ومن هناك راح يوجّه ضرباته الى المستعمرات اليهودية.

ثم توقف القتالُ بالهدنة الأولى التي عقدتها الدولُ العربية مع قوات اليهود، واستمرّت شهراً كاملاً، استطاع فيـه اليهود أن

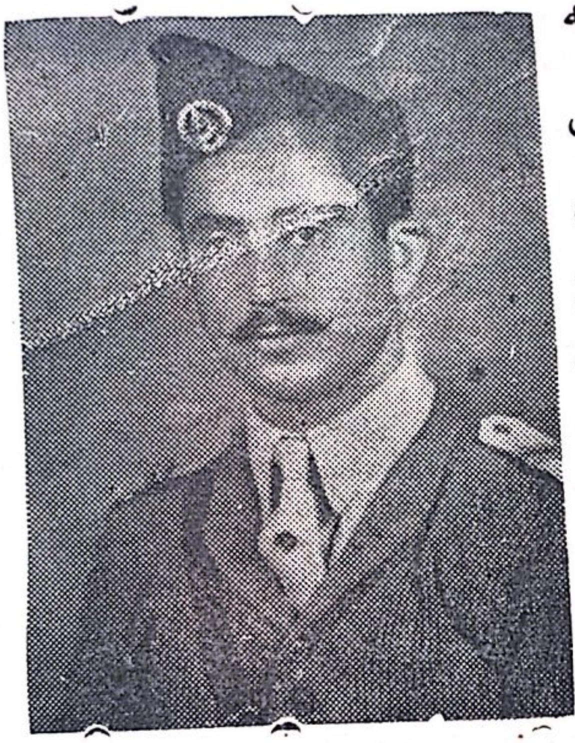
يحصنوا أنفسهم، ويجمعوا قوّاتهم بحسب خطط حربية جديدة، ويزوّدوها بكثير من الأسلحة. فلما انتهت الهدنة عاد القتالُ من جديد لمدة قصيرة جداً؛ وكان مركزُ جيش الانقاذ حرجاً جداً لأنه أصبح يتلـقّى أثقلَ الضربات ودارت بقرب الناصرة معارك رهيبة استمرّت اسبوعاً كاملاً في قرية اسمها (الشجرة) بجانبها مستعمرة يهودية اسمها (الشجرة) أيضاً. وكان اليهود ينتصرون حيناً فيحتـلّون القرية، وحيناً ينتصر جيش الانقاذ فيستولي على المستعمرة، حتى انتهت فترة القتال القصيرة، التي لم تزد على اسبوع واحد، وكان اليهود قد استولوا على القرية العربية من جديد، وتراجع جيش الانقاذ من مراكزه الى الحدود اللبنانية والسورية

في معركة الشجرة هذه كان عبد الرحيم محمود بين الضباط المجاهدين، فاصيب في المعركة، فحمله بعضُ رفاقه في سيارة جيب لينقلوه الى الناصرة. ولكن الارادةَ الالهية أبت أن يعيش المجاهد الجريح، فانقلبت به السيارة انقلاباً أودى بحياته.

هكذا عاش عبد الرحيم الشاعر بطلاً مجاهداً، ومات بطلاً مجاهداً؛ كان مجاهداً في شعره، وكان مجاهداً في دروسه، وكان مجاهداً في نفسه.

الرياضي الشهيد عارف نعمان

أما عارف نعمان فقد كان شاباً من أبطال الرياضة البدنية فى فلسطين . وهو من قرية (بيت صفافا) من ضواحي القـدس . لم يكن يزيد عمره على ٢٥ سنة حينما نشبت الثورة الفلسطينيـــة الأخيرة ، وكان في ألمع شهرته الرياضية ، فقد كان واحداً من فريق منتخب فلسطين ، وكان قائداً لفرقة (النجّـادة) الرياضية كما كان ذا شخصية محبوبة جداً بين جميـع القرويين فى منطقة القدس كلها ، وبين جميـــع أصدقائه ومعارفـه . أما عمله فقد كان موظفـــاً في دائرة قائم مقام القدس .



عارف نعمان

(الشهيد النجاد — لم يكتف اليهود باصابته في المعركة بل لحقوه الى قلب المستشفى)

فلما أعلنت هيأة الأمم قرارها بتقسيم فلسطين ،وهبَّ عربُ فلسطين يدفعون عن وطنهم ظلم هيأة الأمم وعدوان اليهود ، هبّ

عارف مع أهل قريته للنضال ، وابتاعَ مدفعاً رشاشاً (برن) ليستخدَمه في نضاله ضدّ مستعمرة (ميكور حاييم) اليهودية الملاصقة لقريته .

كان أبو عارف من القرويين الأغنياء، وكان أكثرُ أبناء الأغنياء يُهمُّهم ان ينجوا بحياتهم عن ميادين القتال . أما عارف فقد كانت حياةُ وطنه أعزَّ عندَه من حياته، على الرغم من أنه كان مدلَّلا ووحيداً لأبويه ـ وهكذا يكون المجاهدون الأبطال ـ

وفي احدى المعارك بين قرية بيت صفافا العربية ، ومستعمرة ميكور حاييم اليهودية ، أصيب عارف وهو يقذف نيران مدفعه الرشاش على المستعمرة المجرمة ، فَنُقِل الى مستشفى الحكومة في القدس .

وكان اليهود مغتاظين جداً منه ، فأرسلوا فدائياً منهم الى المستشفى متظاهراً بالمرض . فوضعته ادارة المستشفى في الغرفة نفسها التي كان فيها عارف . وفي الليل نهض اليهودي من فراشه وبيده خنجر ،وهجم على البطل الجريح ليقضي عليه . ولكنّ عارف أحسَّ به ، فصاح وهو لا يستطيع النهوض من فراشه ، فأسرع موظفو المستشفى ، واعتقلوا اليهودي المجرم .

وبقي عارف في المستشفى ثلاثة أيام . وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرةَ كان عنده بعضُ أقاربه وأصدقائه ، وكانوا يحدّثونه ويطمئنونه الى أنه بخير ، وأنه سيعود الى قريته يقود مجاهديها للانتقام من ميكور حاييم . فسألهم عن نتيجة المعركة التي جُرِح فيها ، ولما علم أنها كانت ناجحة ، فَرِح لذلك كثيراً ، ونسيَ آلام جراحه .

وبعد ثلاثة أيام قضاها عارف في عذاب الجراح في المستشفى ، ذهبَ الى لقاء ربّه مغتبطاً بنعمة الشهادة في سبيل الوطن .

***

الشهيد فيصل الطاهر

أما الشهيد الثالث فيصل الطاهر فقد كان من الشبان القلائل جداً الذين سخّروا ثقافاتهم العلمية العالية في سبيل خدمة بلادهم في قلب الميدان ، وبين ألسنة نيران الثورة الملتهبة ، واستفادت الثورة من علمه فوائد حسنة .

لقد وُلد فيصل في يافا حوالي سنة ١٩٢٤ ، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها ، ثم أرسلته حكومة الانتداب بعثة الى معهد الفنون التطبيقية في القاهرة ، وهناك تخصّص في كيمياء الأصباغ ، والتحليلات الكيماوية ، والرسم الفني ، والأشغال الجلدية . فلما

عاد الى فلسطين سنة ١٩٣٨ ، كانت الثورة مشتعلة في جميع انحائها ، فاشترك فيها بأعماله الكيماوية وبراعتـــه في شؤون الكهرباء والمتفجرات ، الى جانب أعماله الحرة العادية .



فيصل الطاهر

(خدم الثورة بعلمه ، ومات في خدمة بلاده وتجاربه العلمية)

ولما عادت الثورة الى النشوب في أواخر عام ١٩٤٧ ، كان لديه في يافـا معمل كيماوي للأصبـاغ والبويات والصابون ، فحوّله الى مصنع للمتفجرات ، فكان يعيد تركيب القنابل اليدوية والألغام التي كانت ترد الى المجاهدين من مخلّفـات الجيوش البريطانية في صحراء ليبيا . ولما اشتدت حاجة المجاهدين الى السلاح ، جعل يعيد تعبئـة الخرطوش الفـارغ ، ليستعملوه من جديد . ثم جعل يُجري تجارب علمية على بقايا الافلام القديمة ،فنجح في انتاج نوع من البارود يستطيع المجاهدون أن يستفيدوا منه كثيراً . وقد قدّم لهم منه سبعة كيلو غرامات دفعة أولى ، وبعد تعبئتها استعملها المجاهدون على أحسن وجه .

ثم أخذ يُجري تجارب أخرى على نوع من متفجرات (T.N.T.) كان قد اشتراها بعض المجاهدين بشكل أنابيب رفيعة. وتمكن من تعبئة قنبلة منه ليجرّب المجاهدون استعمالها. ولكنه بينما كان يحملها في يديه ليشدّ براغيها ثم يسلّمها الى المجاهدين انفجرت بين يديه، فسقط ضحية الخدمة الوطنية، واشتعلت النار في المصنع، فتفجرت فيه القنابل اليدوية والمتفجرات الأخرى.

وهكذا في كانت ١٩٤٨/٤/١٤ نهاية شاب وطـــني جريء، سخّر كلّ مواهبه ونشاطه لأجل حرية وطنه، وسجّل اسمه بأسطع الحروف فى سجلّ أبطال الوطنية.

القائد الشهيد أحمد الحنيطي

ولكن هل كان جميع المجاهدين الذين استُشهدوا في ميادين فلسطين، في حربها الأخيرة، من الفلسطينيين وحدهم؟

كلاّ، فلقد جَمع التراب الفلسطيني دماء عربية كثيرة، ليدلّ على وحدة الشعور في الأمة العربية، على الرغم من الحواجز، وتعدّد السلطات في أقطارها الكثيرة. وها نحن نتحدث في ما يلي عن بعض شهداء الأقطار العربية في هذه الحرب المقدسة الأخيرة.

سنتحدثُ أولاً عن بطل أردني اسمه (أحمد الحنيطي). إنه ضابط من ضباط الجيش العربي الأردني، رأى إخوانه في فلسطين يخوضون غمار الحرب العنيفة ضدّ اليهود بدون تدريب عسكري، فترك وظيفته في الجيش، وذهب الى حيفا يقود مناضليها، وينظّم صفوفهم. ولكن لم يكن لديه سلاحٌ كافٍ للحرب؛ فذهبَ مع عددٍ من مناضليه الى دمشق لكي يحصل على السلاح اللازم من لجنة إنقاذ فلسطين، واستطاع أن ينال منها كمياتٍ كبيرةً من الأسلحة والمتفجرات، حملها فى سيارة شحن وقافلةٍ من السيارات الأخرى، وعاد بها مع رجاله. وكان لا بدّ للقافلة من أن تمرَّ من وسط مستعمرات يهودية كثيرة في طريقها الى حيفا، ولذلك ظلّ الحنيطي ورجاله مستعدين بسلاحهم لكلّ مقاومة يبديها اليهود.

وحينما وصلوا الي مستعمرة يهودية كبيرة اسمها (موتسكين)، اعترضت طريقَهم دبابةٌ بريطانية، كانت قد وقفت عامدةً في عرض الطريق لتمنع مرورهم. ولكنَّ سيارة المتفجرات نزلت عن الطريق المعبَّدة، وسارت في الرمل، وعندذاك بدأت نيران اليهود تنصبّ على القافلة، فنزل المناضلون وتحصّنوا وراء سياراتهم، وراحوا يردّون على نيران اليهود.

ثم بدأ اليهود هجومهم عليهم ، فمضت رشاشات المناضلين تحصدهم حصداً . ولكنّ القائدَ الباسل حينما رأى أن اليهود سيتغلّبون بكثرتهم على رجاله القلائل . راح يرمي المهاجمين بالقنابل اليدوية هو ورجالهُ . وبينما كان أحد رجاله يهمّ بالقاء قنبلة على المهاجمين ، أصابته رصاصة يهودية في كتفه . فوقعت القنبلة من يده بجانب خزان البنزين من سيارة المتفجرات ، فانفجرت السيارة بكل حمولتها . فاستُشهد القائدُ الحنيطي وثلاثة عشر من رجاله ، واستطاع الباقون أن يهربوا بالسيارات الى عكا . وُنقِل القائدُ الشهيد الى عمان ، وكانت جنازته رائعةً تليقُ ببطولته .

أما المستعمرةُ اليهودية المجرمةُ فقد دمَّر الانفجار كثيراً من منازلها ، وأصابت شظاياه عدداً كبيراً من المهاجمين اليهود ، فكان ذلك انتقاماً عادلاً سريعاً .

القائد الشهيد احمد عبد العزيز

ولم يكن الحنيطي هو الشهيد الوحيد من أبناء الأقطار العربية المجاورة لفلسطين ممن ساعدوا الفلسطينيين ، بل هناك كثيرون غيره ، نذكر منهم القائد المصري أحمد عبد العزيز .

لقد استقال هذا القائدُ من الجيش المصري ، كما استقال الحنيطي من الجيش الاردني ، لنجدة فلسطين . و دَخلَها يقودُ ألوفاً من المتطوّعين المصريين . وقد استطاع أن يُرعبَ اليهودشهوراً في طريقه بين غزة والخليل والقدس ، وأن يثبت شجاعته وشجاعةَ متطوّعيه ، الذين ضحّى كثيرون منهم بحياتهم في سبيل فلسطين في أعمال الفدائيين البطولية . فقد لقيت منهم المستعمراتُ اليهوديةُ الأهوال ، لأنهم كانوا يدخلون الى قلب تلك المستعمرات ، فيفجّرون فيها الألغام ، وينسفون عماراتِها وأبراجَها بدون خوف ولا تردد .

ولكنَّ الأقدارَ شاءت أن يموت القائدُ البطلُ ، بعد جهاد مخلص وانتصارات عديدة ، بيدِ أحد جنوده . فقد كان أحمد عبد العزيز يقود سيارته (الجيب) في أحد أيام شهر آب سنة ١٩٤٨ — بعد أن توقف القتال بالهدنة الثانية — فأطلق عليه أحدُ الحراس النارَ خطأ ، فأرداه قتيلاً ؛ رحمه الله .

القائد الشهيد مأمون البيطار

وهناك القائدُ العربيُّ السوريّ الشهيد مأمون البيطار ، الذي كان قائداً للمدفعية في جيش الانقاذ . لقد كان هذا القائدُ البطل في المعركة الكبيرة التي قام بها جيشُ الانقــاذ في ٤ نيسان سنة ١٩٤٨ عند مستعمرة (مشمار هاعيمك) اليهودية وبعد أن دَمَّر بمدافعه أبراج المستعمرة وبيوتّها ، جاء القائدُ الانكليزي يطلبُ من القيادة العربية هدنة تستسلِمُ فيها المستعمرة ولكنّ الحقيقة أن هذه الهدنة ، كانت مؤامرةً من اليهود وقائد الجيش الانكليزي لاستدعاء قواتٍ يهودية كبيرة . وفعلاً جاء الوفدُ من اليهود خلال مدة الهدنة ، بمدافعهم وسلاحهم الكثير ، وطوّقوا المناضلين قبل أن يشعر هؤلاء بهم ، وكادوا يقضون عليهم جميعاً ويستولون على مدفعيتهم . غير ان قائدَ المدفعية ، مأمون البيطار ، استطــاع بطولته أن يُنقذ المدفعيةَ من السقوط بأيديهم ، ولكن بعد أن قدَّم نفسه ضحيةً لهذا العمل البطوليّ الرائع ، فسقط شهيداً في ميدان الشرف والبطولة .

الطفل الشهيد صباح عبد الغني

ونتحدث الآن عن طفلٍ سوري آخر كان بطلاً كبيراً ، بالرغم من صغر سنّه . لقد كان اسمه صباح عبد الغني ، وكان عمره لا



البطل الصغير صباح عبد الغني
(لم يتجاوز عمره ١٢ سنة ، ومع ذلك كان عضواً هاماً في فرقة التدمير العربية)

يتجاوز اثنتي عشرة سنة . وحينما رأى أخاه يتطوّع للجهاد في

فلسطين ، هرب من بيت والده في دمشق ، والتحق بقيادة الجهاد المقدس في القدس . ولكن القيادة رفضت إبقاءه معها لأنه طفل صغير ، فأعادته الى دمشق وسلّمته إلى والديه .

غير أن الطفلَ رفض أن يبقى هناك لا يشترك في حرب اليهود ، فهرب مرةً ثانية من دمشق ، وجاء الى القدس. وبعد إلحاح شديد وبكاء كثير التحق بقيادة الجهاد المقدس ، وبفرقة التدمير فيها . وصار يهجم بكلّ جسارة ليفجّر الألغام والقنابل في الأحياء والعمارات اليهودية ، غير مبالٍ بالموت ، وبالرصاص اليهوديّ المنهمر .

ولما دخل الجيشُ العربيُّ القدس ، كان الطفلُ بين المجاهدين الفدائيين الذين يحملون القنابل والألغام ، ويسيرون قدّام الجيش لتدمير أوكار اليهود .

وفي أحد المرات تغلغل صباح بين عمارة حيّ (ميشورم) اليهودي الكبير ، وراح يفجّر في عماراته الألغام والقنابل بدون خوف . وفي عودته رآه بعضُ اليهود الكامنين في العمارات المجاورة ، فأطلقوا عليه النار ، فسقط جريحاً ثم حُمل الى المستشفى ، حيث فارق الحياة سعيداً بالشهادة التي نالها في سبيل فلسطين .

ختام

أيها الطلاب النجباء ! لقد حدّثناكم كثيراً ، ولكننا قبل أن نتوقف عن هذا الحديث الحبيب الى النفس ، نريد أن نذكّركم بشيء هام جداً .

نريد أن نذكّركم بالأرض التي تترامى على الشاطيء الجميل الممتد من حدود لبنان في الشمال، الى قرب مدينة غزة في الجنوب؛ ومن البحر المتوسط في الغرب ، الى الحدود السورية في الشرق ؛ والتي تتربّع في قلب الجنوب الفلسطيني بين الخليل وخليج العقبة والبحر الميت .

تذكروا هذه الحدود جيداً ، وتذكروا أن في قلبها سهولاً وأراضي عربية كلّها مياه وأشجار ، وجنّات عربيةً مفقودة كانت متعة القلب والبصر ، وجبالاً كانت مأوي للنسور والعقبان العربية في جهادها الطويل . تذكروا هذه الحدود جيداً ، وتذكروا أن في قلبها مدناً عربيةً عزيزة جميلة ، منها : (عكا - حيفا - يافا - المجدل) التي يغسل البحر أقدامها في الصباح والمساء ، وتترامى بينها بيارات البرتقال الدائمة الخضرة، التي كانت أعظمَ ثروةٍ لعرب فلسطين.

ومنها أيضاً : (الناصرة - صفد - طبريا - سمخ - بيسان) وبينها وعلى مقربة منها يمتد سهل فلسطين الأكبر (مرج ابن عامر)، أخصب أراضي فلسطين الزراعية .

ومنها كذلك : (الفالوجة - وبئر السبع) ومن حولهما أراضي النقب الرحيبة الهائلة التي تصل حدودنا بشقيقتنا الكبرى مصر ، والتي وُجدت فيها أخيراً ثروات من البترول والبوتاس وغيرهما.

ومنها كذلك : (مدينتا اللد -والرملة) ؛ وما حولهما من بيارات ، ومطارات ، ومعسكرات كان يجب أن تكون كلها لنا .

تذكروا هذه المدن والسهول والثروات الضائعة كلها، وتذكروا ما يتناثر على هذه الأرض الواسعة ، وفي داخل الحدود المترامية من قرى عربية ، كانت كلها مصادر بطولة ، وميادين جهاد جبار ، ثم أصبحت تحت رحمة الأعداء .

وتذكروا جيداً أحياء القدس الجديدة : (القَطَمون - البقعة الفوقا - البقعة التحتا - الطوري) وما فيها من العمارات الفخمة الجميلة التي تضاهي أعظم مدن العالم في جمالها وروعتها .

كلّ هذا خسِره عرب فلسطين، وتشرّد واعنه، ليس لضعفهم وعجزهم ، بل لمؤامرات الأعداء الظالمين : دُوَل الغرب الكبرى، واليهود)، وجُبن الأصدقاء الذين نفّذوا في فلسطين ارادة الأعداء.

لم يخرج الفلسطينيون منها إلا بعــد أن قدّموا ألوف الضحايا الكريمة وبذلوا ما لا يستطيع شعبٌ أن يبذل أكثر منه .

وها هم اليوم لاجئون مشرّدون في كل أرض ، تُؤويهم الكهوف والخيام ، ويعيشون على لقمة الاحسان الذليلة ولم يكن لهمُ مَن يؤمّـلهم بالعودة الى الوطن ، ولا مَن يقدّم لهم السلاح ويقذف بهم الى المعركة من جديد ، لينتقموا ، وليستعيدوا وطنهم المغصوب .

ولكنّ المستقبلَ بأيديكم أنتم يا أبناءنا ويا أمَـلنا الكبير .

فحذار أن تنسوا الأرضَ التي اغتصبَها الظلم والعدوان . واذا نسيتم أو تهاونتم ، فلسْتم كراماً ، ولستم جديرين بالحياة .

ولكنكم لن تنسوا ، ولن تتهاونوا ، بل ستجعلون الحقــد المقدس ينموا في صدوركم يوماً عن يوم ، وتتغذّى به نفوسكم ، حتى يجيء اليوم الذي يسجّلُ فيه التاريخ أنكم غسلتم عار الامة العربية ، واسترجعتم الوطن المغتصب ، وأزلتم عن ارضه رجس اليهود وقذارتهم ، وأنقــذتم الوطنَ العربيّ كله من مؤامرات المستعمرين وأصدقائهم .

وعند ذلك سنشعُر نحن آباءكم براحة الضمير ، سواء أكُنّا أحياءً أم أمواتاً ، لأننا قدّمنا للوطن جنوداً وزعماء سياسيين يعرفون قيمةَ الحريةِ والكرامةِ والوطنيةِ الصادقة .

المشتمل